مهرجان القراءة للجميع

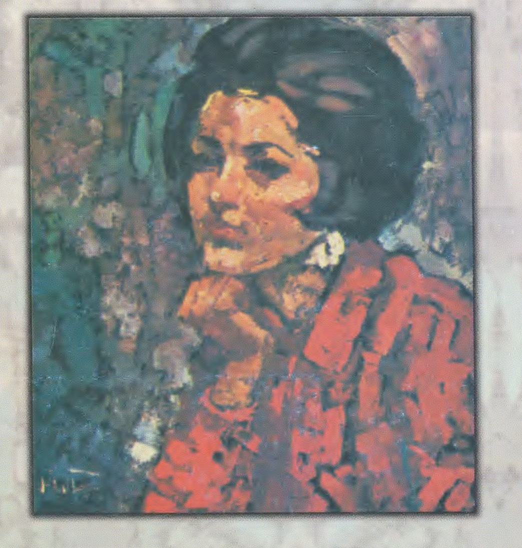


مكتبة الأسرة

منى ثابت

حالة اشتياق

سلسلة الشباب





الهيئة المصرية العامة للكتاب

إهـــــــداء ٢٠٠٧

الدكتور / عاطف رمضان دياب
جمهورية مصر العربية

حالـة إشـــتياق

DL

حـالة اشـتـيـاق الشـبـاب ـ منى ثابت

لوحة الغلاف

اسم العمل الفنى : **بورتريه**

التقنية : ألوان زيتية على توال

المقاس : ٣٥ × ٤٥ سم

جمال كامل (١٩٢٦ ـ ١٩٨٦)

فنان مـصرى، ولد فى أسيـوط، وحـصل على دبلوم الفنون الجميلة ١٩٤٨ ، وعمل بعْد تخرجه رساماً صحفياً بدار الهلال، ثم انتقل إلى مـؤسسة روزاليـوسف، وترقى حتى صار المستشار الفنى. وكان أحد نجوم الحركة الفنية من خلال رسومه الصحفية لمجلتى روزاليوسف وصباح الخيـر، وكان يجمع فى أسلوبه بين دقة الرسم ومبالغة الكاريكاتير، وغالبا ما يختار الموضوعات الاجتماعية، فقام بدور بالغ الأهمية فى ترسيخ المفهوم التشكيلى بين الجماهير العريضة (القراء)، وقدم القيم الفنية الراقية إلى جوار الكلمة المقروءة، وهو يجيد استخدام الألوان الزيتية والمائية وألوان الباستيل.

محمود الهندى

حالــة إشــتيــاق

قصص قصيرة

NC
892-736
T3577h
C.2

مــنى ثابــت



حالة اشتياق

١٦٨١١٣ / ٥



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠١

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الشباب)

حالة إشتياق

منى ثابت

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان : محمود الهندى
المشرف العام :
د. سمير سرحان

الجهات المشاركة :
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة الإدارة المحلية
وزارة الشباب
التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم :

كان الكتاب وسيظل حلم كل راغب فى المعرفة واقتناؤه غاية كل متشوق للثقافة مدرك لأهميتها فى تشكيل الوجدان والروح والفكر، هكذا كان حلم صاحبة فكرة القراءة للجميع ووليدها «مكتبة الأسرة» السيدة سوزان مبارك التى لم تبخل بوقت أو جهد فى سبيل إثراء الحياة الثقافية والاجتماعية لمواطنيها.. جاهدت وقادت حملة تنوير جديدة واستطاعت أن توفر لشباب مصر كتاباً جاداً وبسعر فى متناول الجميع ليشبع نهمه للمعرفة دون عناء مادى وعلى مدى السنوات السبع الماضية نجحت مكتبة الأسرة أن تتربع فى صدارة البيت المصرى بثراء إصداراتها المعرفية المتنوعة فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية.. وهناك الآن أكثر من ٢٠٠٠ عنواناً وما يربو على الأربعين مليون نسخة كتاب بين أيادى أفراد الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً وشيوخاً تتوجها موسوعة «مصر القديمة» للعالم الأثرى الكبير سليم حسن (١٨ جزء) . وتنضم إليها هذا العام موسوعة «قصة الحضارة» فى (٢٠ جزء) .. مع السلاسل المعتادة لمكتبة الأسرة لترفع وتوسع من موقع الكتاب فى البيت المصرى تنهل منه الأسرة المصرية زاداً ثقافياً باقياً على مر الزمن وسلاحاً فى عصر المعلومات.

د. سمير سرحان

أطلب بإلحاح أن :

«قلباً نقياً اخلق فىّ يا الله»

تسألنى شياطينى :

«وماذا لو استجاب الله دعاءك»

أجادلهم :

«سأطلب من الله كتالوجاً حديثاً لاستخدام القلب»

أهدى مجموعتى القصصية هذه.. إلى الذين نالوا هذا القلب ونجحوا دون كتالوج.. أساتذتى وأصدقائى.. وأسرتى رءوف وغادة ونانسى.. واعترف.. ضياء نقائكم منحنى صلابة الاستمرار.. وجرأه الإلحاح فى الطلب.

منى ثابت



بحبك من كشك السجاير

«كل لما بأسمع **صوتك** بادوخ»..

دخلت العبارة **أذنى** بكل وضوح.. فيما يشبه الحلم أو الواقع المستحيل.. لأن آخر شىء تتخيل أن تسمعه فى شارع عماد الدين.. فى الثانية بعد **الظهر**.. هو كلام حب صاف.. وسط هجوم كلاكسات و**عجلات** غاضبة تتدافع فوق بعضها لاصطيادك إذا حاولت عبور الشارع.

وكنت قد **عبرت** كشك السجاير الذى انطلقت منه العبارة الساحرة.. قبل أن **أدرك** واستوعب ماسمعت.. وأتحكم فى خطوتى الواسعة السريعة.

توقفت.. جذبنى **الفضول** للخلف.. لا أريد من هذا اليوم إلا رؤية وجه هذا العاشق **المفتون**.. من يصدق أن هناك إنساناً يهمس لإنسان آخر بكلمة حب **وسط** بركان الغضب اليومى لقلب العاصمة!!

خطوتان **للخلف**.. وكنت بجواره تماماً أمام الكشك أطلب باكو مناديل ورق وأتلصص **عليه**.

العبارة كالرنين **مازلت** تردداتها تدور داخلى.. لكن صورة الشاب فاجأتنى.

كان **مسترخياً**.. مستنداً بظهره على الكشك يواجه الشارع.. صوته «خاملاً»، **وليس «هائماً**»... وأيضاً ملابسه.. إنه أشبه بعمال الورش الحرة بعد **ساعات** العمل فى واحد من أيام وسط الأسبوع.

لا هو «مسبسب» ولا هو «مدهول».. ولا وجود لحبيبته لا في عينيه التائهتين في تفاصيل الشارع.. ولا في وقفته أو قبضته المستهترة على سماعة التليفون.. والحقيقة أن صوته كان رتيباً كشريط تسجيل مجروح في كاسيت مهمل.

تضاعف فضولي.. أعدت باكو المناديل وطلبت واحداً غير معطر.. سألت عن نعناع.. ظللت أبحث عن فكة في حقيبتي الواسعة.. منتظرة سماع ما يفسر سبب «دوخته» من سماع صوت حبيبته.. هل صوتها ساحر؟.. هل تغازله؟.. هل تذكره بلحظات خاصة؟.. هل تبكي وتستنجد؟.. أي سلاح أنثوي تستخدمه ليدوخ علناً من كشك سجاير في شارع عماد الدين!

كاد بروده وفضولي يدفعانني لسؤاله: ماذا تقول لك و... كم عمرها؟.. ما شكلها؟.. وهل لقاؤها مستحيل أم أن هذه واحدة من مكالمات الخط المفتوح بينكما ليل نهار.

خطر لي في لحظة أنه لا يتحدث مع أحد.. إنما كان يعاكس بإلقاء هذه العبارة أي عابرة طريق.. ليري رد الفعل ويتسلى بحكاية، وأنني وقعت في المصيدة.. لأنه ظل يردد برتابة.. حاضر.. أحاول.. طيب.. ممكن.. أيوه.. هه.

أخذت المناديل والنعناع واللبان واستعدت خطوتي السريعة ومضيت.. دخلت.. عمارة الخديوي.. رفعني الأسانسير للدور الرابع.. سلمت الرسالة العاجلة.. وهبطت قفزاً.. سبقتني رأسي تطل على يمين الشارع تجاه الكشك والشاب.. لكنه اختفى.. درت

بعينى.. عبرت الطريق.. مسحت الميدان والتقاطع.. لكنه اختفى فعلاً.. وكان الكشك مغلفاً بغبار الشارع.

إذن لم تكن معاكسة.. كانت حقيقة.. فرحت مع أنها لا تخصنى.. وقائلها بكل تأكيد كذاب جداً.

مرت أيام.. وشهور.. والمشكلة أنه أصابنى فضول متابعة وجوه المتحدثين من الأكشاك.. كلما مررت على أى كشك سجاير فى أى شارع.. التفت دون إرادة.. تطاردنى عبارة «كل لما باسمع صوتك بادوخ».. ووجه الشاب.. وأتذكر هيئته وإن كانت تفاصيل ملامح وجهه اختفت تماماً من ذاكرتى.. وأتخيل أشكالاً كثيرة لحبيبته.. طالبة ثانوى. خمرية خجولة. ممنوعة من الخروج وحدها.. أو زوجة لموظف صامت المشاعر.. غائب.. توقف عن الكلام والسلام والإحساس.. وهذا الرجل عامل دخل منزلها يوماً لتصليح كهرباء.. أو سباكة.. أو نجارة، وحصل على رقم تليفونها.

وبدأت أنسى الموقف..

وبعد ستة أشهر وأيام.. ذهبت لتسليم ظرف آخر فى عمارة الخديوى.. وجدته واقفاً نفس الوقفة.. بنفس الملابس.. والسماعة فى يده عبرت الطريق إليه بسرعة.

وقفت أطلب باكو مناديل ورق.. سمعته يقول «لما باسمع صوتك». تحفزت.. مستحيل يكون لسه بيدوخ من ستة أشهر.. قررت أقول له «ياكذاب».. أو أضغط زر التليفون أغلقه.. مددت يدى لكن يد صاحب الكشك كانت أسرع.. نزع الفيشة من الداخل.. وصرفه بنظرة لم أفهمها.

الغريب أنه لم يجادل صاحب الكشك.. إنما ألقى إليه.. بجنيه وانصرف ببرود.

برطم صاحب الكشك.. الله يلعن الأفلام الهندى على الأمريكانى.. على الفقر!

أدركت الحقيقة التى كانت واضحة.. إن هذا الشاب فعلاً حرفى يحمل أرقام الزبائن.. ولا يملك من الأحلام سوى ثمن تذكرة السينما.. بعد كل فيلم جديد يدير قرص التليفون بمجموعة الأرقام.. وأول واحدة تستجيب يسمعها حوار البطل.. وإن من يطلبها ليست ضحية.. إنما فتاة أو امرأة تشتاق مثله لحوار كاذب.. ولكنه حى.. وليس كلاماً فى أغنية و فيلم يوزع المشاعر على الجميع ببلاش أو مقابل تذكرة سينما.

اكتفيت بشراء مناديل.. وتمنيت لو أجرؤ على الضحك بصوت مرتفع، وأنا أسير وحدى بخطوة هادئة فى الشارع الغاضب.

ربما أتوقف من الآن عن مراقبة تليفونات الأكشاك.. لكن غالباً لن أنسى العبارة الكاذبة المنعشة «كل لما بأسمع صوتك بادوخ».

انتخابات بالسيجار والكافيار!!

زحام زحام زحام..

مرشحون وناخبون ومتفرجون.. خليط يتنافس في القضاء على بعضه.. نحن في انتخابات جمعية أهلية.. يتساوى فيها الناخب والمرشح في القيم والعلم والمبادئ والأهداف.. جمعية تطوعية ورثنا أصول تأسيسها من أخلاق ملوك وأمراء ونبلاء.

منذ نصف قرن.. كانت مبادئ وأهداف الجمعية نفسها صوفية.. الفن عشقها وقنديلها الذى يضيء الروح ويسمو بالأخلاق. وكان لها فرسان كالرهبان.. هدفهم نشر رسالة الفن لخلاص النفوس.

وهذه الليلة.. ذهبنا فى نفس الموعد.. إلى نفس المكان.. المحراب.. المنارة.. مقر دار الجمعية فى قلب المدينة.

نتقدم وخلفنا مازالت بقايا سرادقات مرشحى انتخابات مجلس الشعب.. «أصوات الهتاف».. أنين الذبائح.. الملابس الممزقة من حمل المرشح على الأكتاف والرؤوس والكرامة.. دماء الضحايا.. صور المرشحين وشعاراتهم تدوسها الأقدام وهى عائدة بالغنيمة والوعود.

لسنا منهم..

الليلة نطلق البخور فى المعبد القديم...

الليلة تأبين وتواصل.. تكريم وتدعيم وبشارة..

زحام.. زحام.. متنافر النوايا والملامح.

رائحة دماء ذبائح سرادقات المتسولين والممولين من غنائم الشعب صعدت.. تسللت ونفذت إلى الدار هنا!!

أطرد الرائحة بتأمل الوجوه.. الماكياج يغلف وجوه الرجال والنساء بنفس الإتقان!! الأجساد كلها تطرح عطوراً.. وعوادم أغلى وأرخص نكهات التبغ.

أهرب منهم بتأمل المكان.. غيروا ملامحه.. أزالوا الرائحة الطيبة للبيت القديم.. كانت أطياف الراحلين دائماً مستكينة هنا مرحبة بشوشة.. أين ذهبوا؟!!. هل يختبئون فى الأركان القديمة حتى ينفض الزحام؟!

أين الحجرات الخجولة؟! أحدهم أزال الجدران.. حول الدار إلى صالة مزاد.. لها دهاليز الأوكار!!

جاهدت.. منعت نفسى من الهرب بصعوبة.. تتزايد الغربة.. والبرودة تخترق قدمى.. استبدلوا خشب الأرضية الدافئ الحى ببلاط حمامات الإعلانات!!

رصوا لنا كراسى معدنية قواعدها مخمل أزرق لكنه لا يحتوى.. فى غرفة الكرار استقرت الكنبة الوثيرة القديمة.. شاهدة.. أمسيات عديدة استضافتنا.. احتضنت براعمنا ونحن شاخصون لأصحاب الدار.. كنا صغاراً بأحلام بكر.. وهم كبار بنفوس مشرقة.. كأنهم أنبياء يبشرون بجنة يعرفون ملامحها.. ويمهدون لنا الطريق إليها بفرح.

اختفت الجنة..

الزحام أجبرنى على الجلوس.. لسعتنى بروده معدن المقعد.. اختفيت وسط سيقان متوترة.. وتحت وابل من الدخان.. تدهسنى أكتاف وأيدى وأجساد المرشحين والأنصار.. الأغلبية غرباء.. ونابشو قبور.. وجودهم يؤكد أن أصحاب الدار وإن لم يرحلوا غاضبون.

انسحبت .. أدركنى أحد الراحلين.. ربت على كتفى وقلبى.. صحبنى بوداعة لأحد الأركان القديمة.. أقنعنى بالجلوس فى الشرفة الصغيرة المطلة على المدينة.. لم يأكلها الدود بعد.

وجه نظرى للتمثال القديم.. تذكرت.. ابتسمت .. هبط تحفزى للرحيل.. زال بعض غضبى.. التمثال هو رأس نفرتيتى.. ظل محمولا على هذه المنضدة العتيقة فى نفس الركن طوال عمر الدار.. مواجها لمكتب صاحبها.. المكتب الخشبى العريق.. كانت ملامحنا صريحة.. نتأمله وهو يتكلم.. ساحراً.. يخطب فى الجماهير بالهمس.. كثيراً ما شردت أقارن بينه وبين التمثال.. أوحد أوجه الشبه.. كيف علم أننى كنت أشبهه بالفراعنة.. وأؤكد أن روح نفرتيتى تطل من عينيه؟!

يجذبنى التمثال بعيداً عنهم إليه.. أسمع همسه وهو يعلم.. أتابع حركة يديه وهو يحكى ويصف ويحلم.

تغمرنى روح فرعونية.. أصبر.. أتحمل.. أنظر وأنتظر.. المزيد من الوجوه الغريبة تترافد.. أغلبها باسمة.. وكاذبة!

بنقذني وصول وجه أعرفة.. رفيقة أمسيات الدار القديمة. أمحو تدفع الزحام لتصل إلى البلكونة.. تفاجأ بوجودى.. نقرر الصمو معاً.

عتبة البلكونة الصغيرة الحبيبة اتسعت لمقعدينا متلاصقين. خلفنا المدينة بنفس ملامحها القديمة.. نحنى رؤوسنا نتجنب تطاير خناجر البلطجية ولصوص الآثار.. ليحملها الهواء الهارب ويلقيه خلفنا.

جاء بمقعده يجاورنا.. ترك الساحة لمحترفيها .. اسمه أول قائمتهم.. وعمره لا يسمح بهذا النوع من النضال.. يجامل الغرباء بفتور لأنه لن يعرفهم ولن يعرفوه.. هو صورة من التراث مطلوبة لتأصيل قيمة المجلس الجديد.

والصور لاتشاغب ولا تحاسب.. ولا تحتاج للاشتباك والنضال لتبقى.. تعرف أنهم يدفعون فيها أضعاف ما تستحقه لتبقى شاهدة صامتة على الماضى إذا أراد دخيل أن يسأل عنهم!.

فهمت أن رفيقتى تغمرها وتؤلمها نفس مشاعرى.. وأن صاحب الدار دفعها إلى جوارى عندما استعدت للهروب مثله.. تأكدت من ظنى عندما لمحتها تتأمل تمثال نفرتيتى وتبتسم.: ثم تسترخى فى المقعد.

حلقت حولنا حواديت الدار للحظة لمسنا أمان وجودهم.. وشممنا بخور قلوبهم..

لكن تراشق الخناجر أعادنا لبرودة الواقع.. الحقيقة أن الدار أصبحت محل جزارة رغم رائحة السيجار وأطباق الكافيار الزفرة.

هربت موسيقى المكان.. وتناطح النشاز بوقاحة تدوى بها شابة غريبة.. ناخبة تهدد بالانسحاب إذا لم تبدأ الانتخابات فوراً.. الحساب والعتاب ومؤامرات الاستيلاء على الدار لا تعنيها.. يهرع إليها المرشح الذى أجبرها على الحضور ودفع النصف مقدما.. يستجديها البقاء. يضاعف الوعود.

جارنا المرشح العجوز مازال على سكونه.. وانعزاله.. لا مشاركة.. لا تأييد.. لا حساب ولا وعود.. نتعجب.. يقرأ تعجبنا.. يقول بحكمة نحن أشبه بمجلس النواب.. لهم مقاييس للنجاح.. وبعدها يجلسون مستمعون بلا فاعلية.. ولا يبقى فى النهاية إلا الصورة التذكارية مع الرئيس. . هذه هى الوسام الفخرى لحياتنا.. ويضحك !!.

نعجز عن مجاملته بالصمت.. تلقى رفيقتى عقب سيجارتها على الأرض. تدوسها بقدمها.. وتقول له بصوت واضح.. مجلس النواب كان قبل الثورة.. ما تتحدث عنه أصبح اسمه مجلس الشورى.. وهذه الدار لا مكان فيها لتعليق الصور التذكارية.. ولن تمنح أوسمة لأنها لم تعد تملكها.

خسارة العتاب فيك!

دش الفانوس الخلفى الأيمن لسيارتى.. ودهس أجزاءه.. حولها رماداً بعجلاته ليتجاوزنى ويسبنى على «حموريتى».. لماذا أبطأت والإشارة بعد صفراء؟!

ولأنه ميكروباص.. آثار سوابقه ألوانا وكدمات عجنت صاج سيارته.. والشارع هو ساحة ملعبه الحر.. وصراخ الفرامل قبل التصادم لم يخدش سلبية أحد.. حتى ولا حراس قسم الأزبكية عن يمينى.. قررت المضى لعملى بهدوء.. يكفينى ما ينتظرنى!

تقدمنى.. سد الرؤية وحجب الشمس.. مجبراً على انتظار الضوء الأخضر.. وجهه يلعننى من المرآة الصدئة المستطيلة بجواره.. ويؤكد أنه مازال يسبنى.

جمهور الشارع أحاطنى بنظرات غامضة.. غضب وتعاطف للحظة.. ثم شماتة وأسف!!.. غالباً لأننى أفسدت عليهم متعة توابل الخروج عن النص فى مسرح الشارع.. بانسحابى من الاشتباك.. يتحرش بسيارتى.. يتأرجح بالميكروباص كفارس يمتطى جواد المقدمة.. ركابه صامتون.. بعضهم يتدلى من الباب المفتوح.. أحدهم غفى وطارت جريدته على وجه سيارتى.. والأغلبية فى توهان الطريق..

ستاره الميكروباص «كريتون» قذر مطبوع زهوراً متوحشة..

الستارة ترفرف أمامى من النافذة المكسورة..

ما بين النافذة ولوحة أرقام الميكروباص.. كانت المفاجأة.. عبارة واضحة الحروف من ثلاث كلمات.. هى «خسارة العتاب فيك»!!

أغرب عبارة يوجهها مفترى للضحايا!!

طالت الإشارة.. عينى تسمرتا على العبارة البليغة.. «خسارة العتاب فيك».. عقلى اخترقها.. توغل ... وعاد ساحباً خلفه وجوها أتى بها من مواقعها.. وجوها كثيرة كلها «خسارة العتاب فيها».. ابتسمت.. ضحكت.. وأضحكت معى نجيب الريحانى وهو يعبر الإشارة أمامى فى طريقه لمسرحه.. كان يضع وجه «أستاذ حمام» الباكى وهو يشاركنى الضحك.

لمحت طيفاً بجوارى...

رأيت وجهه الضاحك منتصراً.. إنه عالم الاجتماع الزاهد.. الذى استهلك عمره يتأمل سلوك البشر.. ويحلل دوافعهم.. يخمن فروضا ويتنبأ بملامح مستقبل.. أمتع رحلاته كانت جمع ما كتبه البسطاء على جدران سياراتهم.. دار خلفهم شهوراً.. أكد ما افترضه.. إن البسطاء لم يتلوثوا.. خريطة حياتهم الحكم المتوارثة.. وتربتها الصبر.. كنز قلوبهم كضوء القمر.. يداعب أيام وشهور ليالى العمر ولا يخبو أبداً.. متأكد هو قبل المطاردة أن غايتهم ستظل الصحة والستر.. وصال الحبيب.. طرد شر الحاسدين بالعيون وقرون الشطة.. ينطلقون برضاء الله ودعاء الوالدين.. سجل العالم شهادته فى كتاب تزاحم فى مخازن مركز الأبحاث.. ورحل راضياً..!

لكن عبارة سائق الميكروباص جديدة.. هرب من العالم الآخر لحظة.. سجلها... وعاد ضاحكاً لموضع راحته..

انطفأت العين الحمراء.. وغمزت لنا الخضراء بإشارة «انطلقوا».. مضى السائق أمامي ينهب الأسفلت.. ويعمى الهواء.

وصلت عملي بسعادة غامرة عجيبة..

عبارة «خسارة العتاب فيك» تحولت إلى علامة «ممنوع» المرورية فى نفسى.. تضيء وتأمرنى «قف» كلما مررت بمن تنطبق عليهم.. أعبرهم وكأنهم هواء خامل.. بلا وجود ولا تأثير.. أمضى فى طريقى لمكتبى بإحساس مريح لاختفائهم.

إلا هو.. رئيس القسم المسكين.. المتربص.. الذى ينفث الحقد ويتبلعه.. يتلون بأقنعة وألسنة ودموع وضحكات كل المخلوقات الشريرة.. هذا اليوم رأيته.. لم يختف.. لكن لم أتجنبه ولم أتحداه!!.

تمهلت أمامه قليلاً.. هل كان قزماً أم أصبح؟!.. ماذا يحجب تأثيره عنى.. يرغى ولا أسمع صوته؟.. هل تحولت العبارة إلى «تعويذة» سحرية؟!.

أراه جيداً.. يحرك عضلات وجهه وجسده.. يكرر نفس الحركات بفمه.. يبدو أنه يعيد ما يردده يومياً منذ مجيئه هنا بالاحتيال.. ينتفض.. يتلوى.. يصرخ.. يلطم.. يبكى.. يهدد.. يزهو بمنصبه وكفاحه المشين للوصول إليه والانفراد بتهليب كنوزه!!.

ياحرام!!

إنه مسخ.. هل كان مسكيناً هكذا قبل أن تغذى عبارة السائق الطائش عقلى وتعزى نفسى.. أشفق عليه بصدق.. أعماقى تهتز من الضحك والرثاء.. أتمنى لو أن له زر تشغيل لأوقفه وأريحه كما ارتحت أنا منه.

اختفى.. نجحت.. عبرته بسلام.. أغلقت حواسه بالعبارة الساحرة.. «خسارة العتاب فيك» ومضيت ألاحق طاقة هائلة للعمل والضحك.

الهانم

والقلوب.. وعيد الحب

اليوم تأكدت أن فالنتين هذا شخص ماكر.. وأنه مارس معى ألاعيب لأنتبه إليه.. وأستوعب حقيقة رسالته.

منذ سنوات قليلة.. مع بداية معرفتى به وتواجده فى محلات المدينة.. كنت أبتسم بذهول عابر كلما سمعت صديقة فى مثل عمرى أو تزيد تتألم لأن زوجها سخر من عيد الحب.. ويعتبره تجارة للمراهقين ومغازلة للعقول الفارغة لأمثالها.

العام التالى.. توقفت قليلاً أمام حزن صديقة زوجها مثقف.. وله نظريات فى التسامى والزهد وأولويات إحياء الروح قبل إشباع البدن.. وكيفية فتح أبواب العقل والقلب للفرح.. كنت أحبه وأحبها لأنها اختارته شريكاً.. حزينة فعلاً وهى تحكى أنه شبه قلب فالنتين الأحمر القانى بعرف الديك الشركسى.. وعاتبها لأنها سارت مع القطيع وفكرت فى شراء هدية له.. كيف وغالبية أهل المدينة يزحفون لتوفير الرغيف الحاف للأطفال.. وزجاجة الدواء والأمان للعجائز.

وظل فالنتين ضيفاً أجنبياً لشهر فبراير.. لم أقترب أو أبتعد عنه كثيراً.. فلسفت وجع قلوب صديقاتى بأن كل إنسان حالة خاصة.. احتياجاته تتبدل حسب حالته المزاجية. وظللت على قناعتى بأن

فالنتين خواجة شاطر يبيع الهامبورجر فى الحسين.. وأنه مثل هجوم المحطات الفضائية الأجنبية على تليفزيوننا الهزيل.. فصلنا عن واقعنا.. وضاعف غربتنا وحيرتنا.

ثم بدأت أغضب من فالنتين بعدما توسع استيطانه.. وغطت دماء قلوبه محلات الهدايا.. ووصلت إلى اقتحام محلات الخردوات الشعبية.. لا يفرق بين توهج دماء العشاق.. وإسالة جراح المحرومين.

غضبى هذا.. كشف لى سر ثورتى على فالنتين.. إنه شكل القلب الأحمر القانى الذى أطلقه علينا شعاراً على البالونات والأطباق.. والوسائد الحمراء المتوحشة التى تخنق الأنفاس.. هذه بالتحديد تثير نفور أعصابى بدلاً من تجديد رقة مشاعرى.. عيونى تنفر وتجرى منها.. لها لون أكياس نقل الدم.. وجلطة الشرايين المرعبة.

رسمت صورة لفالنتين هذا شيطاناً بأنياب دراكيولا.. لأن الحب فى ثقافتى مشاعر مشمسة.. دافئة.. متلألئة.. قمرية.. وردية.. تتسلل ولا تقتحم.. تعمر القلوب ولا تلكمها.. ترفع أرواح المحبين على وسائد من سحاب هائم أجنحته تفاؤل وأمان وصفاء.

حتى كان العيد السابق لفالنتين أفندى.. فأجأتنى ابنتى بهدية حمراء.. جاهدت لأعلن سعادتى بها وجاهدت أكثر منى لتخفى إحباطها من رد فعلى.. أهدتنى أجمل ما أعشق من المخلوقات الصغيرة.. حشرة الحظ الخنفسة الرشيقة ذات الدرع الأحمر المنقط بالأسود.. كانت دافئة رقيقة محبة بالقلبين المعلقين على قرنيها.. جسدها مخمل أحمر ناعم.. وجهها أبيض صاف.. عيناها خرزتان

سوداوان تبرقان فرحاً.. تتبادل النظرات مع من يفتح لها قلبه كالموناليزا.

إكراماً لابنتى ضاعفت تحيتها.. وكانت رائعة بادلتني التحية بتلاوة مزامير الحظ والحب والحقل الممتد للأفق.. لتصعد المزامير فى ضوء القمر إلى ما بعد السماوات السبع.

بعد أيام أحببتها.. تصادقنا.. بحثت فى تاريخها.. فرحت لأن لقبها فى الموسوعة الإنجليزية «الهانم» لأنها المدللة فى عائلة الخنافس.. تخفى أجنحتها الشفافة تحت هذا الغطاء الأحمر الواقى المشرق لتضئ الحياة.

أما نحن الشرقيين فنطلق عليها اسم «أبو العيد» ولا أدرى لماذا «أبو» وليس «أم»؟!

لكنى أعرف أن وجودها عيد لأنها تلتهم الحشرات الضارة بالإنسان.

بعدما أعلنت حبى «للهانم» اعترفت لى ابنتى أن سحر فالنتين شملها وصديقاتها فتبادلن الهدايا.. واختارتنى إلى حين ظهور فارسها.. وأن ثمن الهدية مخصوم من هدية عيد الأم الشهر التالى!

وأصبحت الهانم فرحة لا تفارقنى.

أما هذا العام فقد تبدل الحال بعدما اخترق سهم كيوبيد قلب أميرتى الصغيرة.. ونثرت نجومها الذهبية والفضية حولنا.. ونجحت فى جذب انتباهى لضجيج فالنتين الذى يحاصرنا كالسيل.. وجدتنى اليوم أقل سخرية.. وأكثر تعاطفاً مع صديقاتى الغاضبات.. بل وجدتنى أسبقهن فى الفرجة على المحلات.. وعلى الجديد فيما كنت

أؤمن أنه تجارة الحب.. قلت لنفسي مجرد فرجة للعلم والتواصل فقط.

ورغم استعدادى النفسى الجديد.. فشلت فى تحمل شكل ولون القلوب الحمراء الثقانية.. إحساس غامض.. لماذا تخيفنى؟ لماذا تشعرنى أن قلبى سينتفخ وأن دمائى ستتجلط؟! وشرايينى ستنسد.. لماذا تشعرنى بالكذب الفاجر؟!

أين المهرب؟ أخرج فورا من المحل.. لكن أنقذتنى مجاميع وصفوف الكروت الرائعة.. جذبتنى الكلمات.. ياااه ما أروع كروت الحب رغم أنها مستوردة.. ما هذه الرقة وهذا الرقى.. ومن أين تأتى منابع هذا الفيضان الشعرى الساحر وهى مدفوعة الثمن.. أقرأ بنهم.. كلمات تطهر قلب الشيطان نفسه.. رسائل حب وعرفان من وإلى جميع البشر.. من وإلى أصدقاء.. أحباء.. أزواج.. آباء.. أبناء..

كلمات جاهزة للعاجزين عن التعبير.. إما عن جهل.. أو عمى.. أو تراكم هم.. أو خجل.. والخجل للمحبين الذين يتلمسون الطريق للقلب الآخر.. يمنعهم الخوف من الصد.. وتطلق الكلمات الجاهزة فيضان أشواقهم بلا حرج.

كلمات.. كلمات.. كلمات.. جيوش من شياطين الشعر اخترقت أبدان شعراء أجانب هائمين.. أعذبهم الفرنسيون والإسبان.. أبياتهم صادقة كالحقيقة.. نابضة.. أمواج صاخبة وهامسة.. راقصة.. تلمس النجوم.. وتنشر عبير الزهور.. أنامل ترتعش.. وكون يتلاشى.. وقلوب تنبت لها أجنحة فراشات الأساطير.. الموسيقى تخترق الكلمات.. تطلقها من أسر الأرفف

وأوراق وأغلفة الكروت.. تدور بها فى هواء المحل.. تغنى: أحبك..
أنت اختيار قلبى وعقلى.. «نعم تمنيتك فى أحلامى ولم أتصور
معجزة أن يتحول الحلم إلى حقيقة وتتجسد أمامى».. كلمات..
كلمات.. كالخمر الصافية المقطرة العطرة.. من أنت يا فالنتين..
ساحر أم عاشق أم مجروح؟!

هبطت إلى أرض الواقع.. لم أشتر شيئا.. خجلت من نظرات
وزحام الشباب الذى بدأ يغزو المحل بعد ساعات الدراسة.. تلاميذ من
إعدادى إلى الجامعة.. وجوه مشرقة.. وطفلة صغيرة تقبض أمها على
يدها الصغيرة وتحمل عنها حقيبة الحضانة.. بينهما مشكلة واضحة
فى العيون.. والطفلة تعاقب أمها بصوت مسموع مرتفع يتكرر..
«لن اشترى لك هدية فالنتين»..

انسحبت بمشاعر كنت أفتقدها فعلا.. هواء الشارع مشرق
اليوم.. عظامى تحتاج دفقة شمس شتاء منعشة.. يبدو أن الحب
يحتاج إلى عيد وتنشيط حتى ولو تحول إلى تجارة.. وحتى لو كان
أجنبى المولد والشعراء.. وأن القلب كبطارية السيارة يحتاج إضافة
ماء مقطر كل فترة وإلا!!

أحتاج مكاناً فسيحاً.. مضيئاً.. هادئاً.. مشرقاً ككلمات شعراء
فالنتين حالاً.. ذهبت إلى النادى.. اخترت حديقة بعيدة.. حشائشها
ضاحكة.. تفاءلت.. لا يوجد سوى زوجين حول منضدة على الطرف
البعيد شكلهما وجلستهما تنبئ بجلسة شمس صامتة سريعة.

رغم المسافة بيننا.. وصلنى صوتهما واضحاً جداً مفاجأة
سخيفة.. هممت بالنهوض.. لن أفسد مفعول الكلمات.. فررت



اليوم التأمل وتهذيب أعشابي.. واختبار قوة بطاريتي ولن أتراجع.
هيا من هنا.
لكن صوت الأم كبلني.. كان باكياً مختنقاً.. ألماً حقيقياً قانياً كقلوب فالنتين التي تفزعني.. أما الرجل فصوته بارد آمر معاتب.. نصل سكين تشفي الضحية من الزوائد.. مثل جزار يشفي لحماً ساخناً ليتسلمه الزبون خالياً من الشغت والغضاريف.
هي ممتلئة بؤساً وانحناء وهو مارد ممصوص..
هي محجبة حجاب اكتئاب وانكسار بلون ملابس المساجين الأزرق الزاهي.. وهو يرتدي بدلة خضراء رياضية يقاوم بها سنوات الغروب.. وعلى رأسه «كاسكيت» أمريكاني للتشبث بأذيال العمر وإخفاء ذل الاحتياج.
تتضح كلماتها بوسع الحديقة.. تستجدي رحمة.. تستعطف قلباً أصم.. تقول: لم نكن نجرؤ على رفع أصواتنا في وجه أم أو أب أو أجداد.. وأنا كل عمري وصحتي وبدني وأحلامي قدمتها برضاء له.. تحولت بإرداتي إلى عبدة لأوامره.. وفي النهاية يرفع يده يكاد يصفعني».
يحتد صوته بأشد من ألم صفعة الإبن التي لم تتم.. يهيل عليها تراب النادي.. كضفدعة تمد لسانها للخارج لاصطياد ذبابة.. يطلق لسانه كرباجاً سودانياً أعمى.. يدوي معلناً لها ولي ولكل نساء النادي والحي والكرة الأرضية رسالة النذالة والأنانية والتسلط.

يقول لها: «جدتك وأمك وأمي ربوا أجيالاً ولم تشك واحدة منهن أو تئن.. أو تطلب عرفاناً.. وأنت لا تتوقفين عن ترديد تضحياتك.. ولا تفهمين أنها رسالتك في الحياة وواجبك».

كلماته قمعتها.. سحقت منابع دموعها.. أذل قلبها الحزين.. صادر صوت أنينها حتى اختنق وابتعلته نادمة مخزية.

وانتفخ قلبي بدم أحمر قان كوسادة فالنتين!

أتأملهما.. زادت انحناء.. اختفي وجهها عني.. نكسته على المائدة كأعلام الحداد.

أما هو. فتضاعف طولاً.. اعتلى منبر الدفاع والهجوم والاتهام والإدانة معاً.. بدأ يعدد تضحياته وتحدى وجود من سبقه أو حتى شابهه في التضحية.

قال: «لم أبخل بمال أو صحة.. حافظت على كرامتي وشرفي.. قمعت ثورات جسدي وقنعت بك على حالك هذا.. أتابع مغامرات زملائي المتزوجين رجالاً ونساءً بحسرة وعجز.. إذا تطاول واستمع لوشايات خطيبته وطمع أهلها سوف أسحقه بقدمي».

حاولت إقناع نفسي بأنه لابد أنه ضحي وتألم.. لابد أنه اختنق وحيداً في شرنقة الاغتراب في بلد عربي سنوات لمضاعفة المال.. حقق أحلام أسرته وأضاع عمره.. لابد تمرغ في وحل مستنقع عمال التراحيل الذي تلفظهم طائرات الخليج في رحلتي الذهاب والعودة..

لكن العتاب بينهما انتهى.. هذا فقط ما صرح به.. هذا ملخص آلامه.. إنه قمع غرائزه وحافظ على شرفه وكرامته!!

أين أنت يا خواجة فالنتين من هذا الوغد.. الذى يعلن مظهر زوجته كل بنود تضحياته وسحقه لإنسانيتها؟.. أسد سخط زوجته أرنباً مذعوراً ممنوعاً من الأنين إذا هرب من الجحر!

تهدلت طرحة الحجاب على جبهتها أكثر كأنها تسدل الستار على آخر فصول المسرحية أو تحافظ على ما تبقى من ماء وجهها أمام أعشاب الحديقة.

أخفت عينيها بنظارة سوداء قديمة رخيصة قبيحة كردائها المهمل.. أصبحت جسد امرأة بلا ملامح خاصة.. أخفت ملامحها لتمنع أى فضوليين مثلى من مواساتها إذا صادفتها يوماً فى النادى وحيدة بدون الزوج الشرس.

صبغ الأنين جسدها وغلفه وعجنه.. أما هو فأعاد التأكيد على تضحياته وعلى ضآلتها.. جردها من ماضى أمومتها كله بعبارة ختم بها خطابه «أى أم هذه التى تطالب بثمن التضحية والتربية والعمر»! وقام.

جرجرت أقدامها وتبعته.. تسير إلى جواره بلا غضب ولا تمرد ولا حتى عتاب.. فهمت أنها ليست المرة الأولى بينهما.. ولن تكون الأخيرة.

تابعتهما خارجين.. لوثا هواء الشتاء المشمس وعشب الحديقة خلفهما بغيمة ثقيلة.. لها رائحة الأسفلت الساخن.. ولها صوت عجلات البلدوزر وهى تسوى الأسفلت بالأرض.

اقتربا من مدخل النادى.. ظهران لزوجين لم ولن تتماثل أو تتلامس قلوبهما مهما حاول فالنتين.

لكن فالنتين ألقى آخر صواريخه.. أرسل لى نسمة قوية بددت سحابتهما الخانقة فى لحظة.. مجموعة أمهات شابات انفلتت أيدى أطفالهن بمجرد اختراق بوابة النادى.. الوجوه كلها ضاحكة.. انتزع كل منهم دراجته الصغيرة من يد أمه.. وانطلق فى الممر الطويل كأسراب النورس.. وقلوب الأمهات الصغيرات تنطلق خلفهم.. أسمع دقاتها موسيقى حب وحماية تطلق أطواق أمان وردية تحيط بالصغار وتلهث بالدعاء.

لسعتنى الشمس.. حرقتنى.. ثم أهدتنى نسمة من قلوب هؤلاء الأمهات المتناثرة حول الأطفال.

مددت يدى أصافح فالنتين وأملؤها من نجوم قلوبه المضيئة.

وعرفت لماذا كنت أكره شكل ولون القلب الأحمر القانى.. الذى تلوث به المحلات التجارية كلمات ونوايا فالنتين.. فرحت لأنى عرفت.. هذا القلب القانى كان قلب هذه الأم المحجبة المنتفخ ألماً الذى أحنى ظهرها.. لكننى على يقين أن رسالته الحقيقية ستصلها يوم تريد هى.

كله يهون

الساعات تمر.. والبشر يتبدلون.. المكان مشحون بدموع طائرات تغادر، وفرحة طائرات تصل.. والرجل نائم تماماً.. ممدداً داخل جلبابه الواسع فوق رخام مدخل صالة السفر.

واضح أن أحلامه هانئة ومتصلة رغم حرارة قرص الشمس.. ووسط هذا الطوفان من الحركة والأصوات. مسافرين ومودعين.. ومستقبلين.. عائلات كاملة بأطفالها، وبلدياتها تفترش كل مساحة الحشائش المحيطة ومعها الزاد والغطاء والفرش لوداع وتشجيع رجال تحولوا إلى بضائع تنتظر الشحن.. وهم مرصوصون فى انتظار الدور!

وهو نائم.. وحيد إلا من وسادته اللينة، وهى حقيبة الملابس البلاستيك الشهيرة.. التى تعلن بقلم أسود صريح اسمه وعنوانه بالتفصيل.. شخيره عال.. أحلامه تضغط بقوة على «كيس» الباسبور وعقد العمل والنقود.. المقيدين فوق ضلوعه بلفات دوبارة طويلة.. «يا عم يا نايم.. اصحى.. طيارتك إمتى؟».

ببرود وهدوء ينظر لساعته..

- «لسه بدرى.. يوم تانى.. الطيارة بكره خمسة الفجر.. وصلت من سوهاج امبارح الظهر.. رايح الكويت.. اتفضلى.. طيب الأخ اللى معاكى يولع؟.. ليه دى ولعه أمريكانى!».

- «باشتغل سواق فى هيئة النقل بوزارة الكهرباء بالكويت.. بقالى هناك تسع سنين لكن خلاص نفسيتى تعبت.. سنة ونصف

كمـان.. وكفـاية قوى.. **مش** عـاوز فلوس تاني.. أرجع أشرف على مشروعاتي في مصر **وإسكندرية** والصعيد.. وأعيش وسط أهلي».

- «قبل ما اتغرب.. **كان** عمري أربع سنين.. مات أبويا.. عشت عند أصحـاب الأرض **في طنطا** ١٢ سنة أزرع لحسـابهم.. وأهلي في «المنشاة».. ضواحي **سوهاج**.. قررت أبقى صاحب أرض.. سافرت زي باقي الخلق.. اشتغلت خمس سنين بدون إجازات.. بعدها نزلت إجازة اشتريت أرض **في بلدى** أخذتها رخيصة قوى.. بستة الاف جنيه (!!).. أجرت **عمال** يزروعها، وأمي وأخواتي البنات يشرفوا على الفلاحين.. رجعت **الكويت**، ونزلت إجازة تاني اشتريت أرض في إسكندرية.. حته **حلوة** قوى أخذتها ببلاش.. مساحتها فدان إلا ٣٠ ذراع.. الذراع **بجنيهين** ونصف.. تعرفي ثمنه كام دلوقتي؟.. أكتر من عشرين جنيه».

- - «الأرض كانت **تعبانة** قوى.. اشتريت جرار بأربعة آلاف جنيه ونص.. ساويت الأرض **وصلحتها** ودخلت فيها كهربة ومية بقت مزرعة حلوة.. وأخذت **الجرار** للصعيد وضبت الأرض هناك وشغلته شويه.. بعدين بعته **بخمسة** آلاف وسافرت الكويت تاني».

- «رجعت إجازة.. **اشتريت** عشرين بقرة صغيرة.. الواحدة ثمنها من ١٠٠ إلى ١٢٠ **جنيه**.. أربيها لغاية ما تكبر وتبقى «غول» وأبيعها عارفة بكام؟.. **الواحدة** من ٦٠٠ إلى ٧٠٠ جنيه، وبعد سنة واحدة بس.. ابن **خالي موظف** غلبان شجعته يسيب الوظيفة أم ملاليم.. قلت أديله **ضعف** مرتبه وعمره ما يخوني».

- «سافرت ورجعت تانى.. أخذت أرض جنب المزرعة كانت مبنية دورين.. قلت أوضب الدور الأولانى وأعيش فيه.. وأكمل اتناشر دور أبيعها شقق تمليك».

اسمه «السيد».. عمره ثلاثة وثلاثون عاماً.. التقط له زميلى عدة صور.. وجاءت أوضحها وهو يتحدث عن المستقبل.. لقطة لوجه صقر.. أظافره أنياب ومخالب.. عظام جسده المتوسط عنيدة.. جلبابه كان أصل لونه أبيض.. وجه حذائه مجعد، شقق ويلتحم بالنعل باستماتة وخيوط بارزة.. عيونه تبرق بخبث فلاح، وكرامة صعيدى. وتحدى أيام ذل مضت.. لن يكون سوى مليونير، وفى أقل من عامين.. وكله يهون.

- «تهون أيام النوم فى عنابر الحوش.. تعرفى فيه مصريين ولاد حلال.. الواحد يسافر الكويت ما يشتغلش.. يؤجر حوش، ويقسمه مطارح.. كل مطرح يملأه سراير دورين وتلاتة، وآخر الليل كلنا نتكوم فى سرايرنا.. ومن الفجر «نقزح» على أشغالنا».

- «فى دماغى مشاريع استثمارية.. أديرها وأشرف على عمالها بنفسى.. لكن انتى مسافرة فين بقى؟.. مستنيه ناس. طيب خللى بالك من الشنطة وأنا نايم».

«صورة طبق الأصل»..

«عمرها ٢١ سنة».

وقرّرت أن تفرح جداً..

عنداً فيهم كلهم.. قررت **أن** تفرح.. أن تفرح جداً... القرار باغتها كالقدر مع دخول **الفجر**... في لحظات الصفاء التي تسبق اليقظة الكاملة من نوم عميق.. **والأعجب** أنها قررت تنفيذ قرارها بحماس.. هو أيضاً خارج عن **إرادتها**.. تجهل أسبابه تماماً!!

وكأن «ملاك الفرح» **اختارها** وحقنها وحدها بكل جرعة هذه الليلة ربما كسلا ليتخلص **من مهمته** بسرعة و«يزوغ» من أحزان زبائنه.

وربما لأنه بدأ يشك في **جدوى** عمله.. فهو يدور منذ الدهر كالنحلة طوال الليل.. **يحقن الأكثر** يأساً وعذاباً بجرعات فرح محسوبة.. **لا** تتخطى **الحد الأقصى** مهما كانت أسباب ودرجة الشقاء..

●●

ولكن حتى الملائكة **يغضبون**.. وهذه الليلة قرر التمرد.. فإلى متى.. ولماذا يظل يحوم **حول زبائنه** طول النهار.. يتمنى سماع ضحكة من القلب.. **يستجدى ابتسامة** رضا.. تفاؤل.. أى شيء حتى ولو بسذاجة أو غباء **بلا فائدة**؟!

ماذا **لو** أطفأ الحزن توهجه.. **فختموا** ملفه بعبارة «غير لائق».

اشتعلت لحظة التمرد **المجنونة الجميلة**.. وهو يتأمل وجهها النائم حزيناً.. فحقنها بكل **الجرعة**.. واستراح.. سيلازمها حتى نهاية الغد.. **فإما** يستمر ملاكاً **ناجحاً للفرح**.. أو يستقيل بكرامته..

رن جرس المنبه.. فلم تتراخ أو تتململ.. **أو** تسأل نفسها بغيبوبة «ياترى النهارده إيه؟» ولماذا ضبطت المنبه **بدرى**؟ وهل نحن الآن بعد الظهر أم الصبح؟!

لم تتلُ عبارة توهان اليأس السابقة، **وغالباً** لم يرن المنبه حتى.. إنما هى التى وثبت بأقدام قوية دبت **على الأرض**.. فاهتزت لها النجفة تشاركها الفرح الغامض.. وانتفض **زوجها** غاضباً يبرطم فى الظلام «إيه ده.. مين.. فيه إيه.. الساعة **كام**.. ونام»!!

لأول مرة لا تغضب من الصراخ المعتاد **لزوجها** المذعور، بل تنظر لوجهه بتركيز ولا تكتئب من بلادته.. **أو من** التكشيرة المحفورة ضمن ملامح وجهه لا تفارقه فى أى **حالة**.. حتى الاستغراق فى النوم.. أو الحب.

ابتسمت بفرح حقيقى منشط.. كأنها **مغسولة** بمسحوق مطهر مزيل لكل الأوجاع.. وتسحبت تاركة له **النوم** وكل الأحلام.

الوقت مازال مبكراً.. وهجمة الفرح **قوية تدفعها** لعمل أى شىء بسرعة.

أعادت علبة البن لدولاب المطبخ.. **ستشرب** كاكاو ساقع باللبن والسكر.. رائع.. عندهم حق الأولاد.. **الساقع** فى الشتاء لذيذ.. ستسمح لهم بالآيس كريم قبل المذاكرة **وبعدها**.

تحمست لكتابة المذكرة المطلوبة منها **منذ أسبوعين**.. عن موظف ثقيل الظل كذاب.. يلاحقها بلزوجة **بدومسيه** «جربان».. محشور بروشتات لكل الأمراض النفسية **والبدنية**. حفظت حركاته.. فى شهر الأمراض البدنية يأتيها مسحوباً **مستنداً** على كتف زوجته

الشـرهة.. وفـى الشـهـر التـالى يطالـب بصـرف أدوية الاكـتـئـاب من العلاج السـابق.. ومن زوجتـه.. ومـن حـال الدنيـا.. ومـن رؤسـائه فى العمل إذا تأخروا عليه فى الموافقة على الصرف.

ولا ينـفى أنه يبـيـع الـدواء.. لأن المرض أخف من الموت جـوعـاً.. وعنده كوم لحم.. ويختم كلامه بعبارة «واشمعنى أنا لأ»!!

مطلوب منها كتابة تقرير لمجلس الإدارة للبت فى أمره.. هل يفصل أم يستحق الشفقة!

مـرفق لهـا تقـارير من أاصـدقـائه المقـربين.. ومن زمـلائه تؤكـد أنه يتـمتع بقوة فـيل.. وشـهـية حوت.. وذكـاء ثعـلب.. وثروة إبـليس.. ولكن ينقصنا دليل إدانة قانونى!!.

قـرأت التـفـاصـيـل كلهـا بابتـسـامة ظلت تتسـع وانتـهـت بضـحك يجلجل.. يخدش صـمت الفجر.. ثم يذوب فى نقائه.. ويعاقبها منذ متى لم تضحكى من قلبك؟! لم تتذكر!

بحسم كتبت تقريرها فى سطرين:

- «غيـر مُدان.. ومصلحة العمل تحتم استـمراره لحـمـاسـه النادر. تفكـيـره المبـدع المتطور.. ونتـائجـه المذهلة فى النصـب علينـا بذكـاء وخفة دم.. والعـمل يحتـاج جداً لابـن نكتة مثله... و... و.. والنبى دمه خفيف سيبوه».

استـراحت.. طغى فرحـها أكثر.. فدفعها أن تفتح الراديو الممنوع تماماً بأمـر زوجها.. خصـوصاً علي الريق.. لأن «دماغه مليـانه كلام.. ومش ناقص هرش مخ الإذاعة».

اقتحمت الممنوع.. وداست زرار الراديو.. فقال لها «محمد منير» «تعالى نربط أمانينا.. الفلة ويا الياسمينا».. أجابته بصوت مسموع «ماشي يا محمد.. والله صوتك رايق ومستريح.. بدل عذابك مع كلام الغربة في الوطن.. والحنين للطفولة وأصحابها.. اللى شفطت شحمك من لحمك.. وعصرتك ياولداه.. أيوه كده خليك حلو يامنير».

ومازال الوقت مبكراً.. والفرح طاغ.. بشجاعة استعدت لفتح ضلفتي مكتبة لم تفتحها منذ عقدين.. بالتحديد منذ حملت أعز ذكرياتها من زحام بيت العائلة إلى بيت الزوجية.. اعتادت كل فترة أن تفتحها بحذر وبالقدر الكافى لتدس فيها مزيداً من الأوراق بسرعة.. لم تجرؤ يوماً على مواجهة إعادة تنظيمها خوفاً من الذكريات.. كل ما فعلته بعدما تكدست.. والتحمت الأوراق بجدرانها وانسدت مسامها.. أنها اشترت مكتبة جديدة.

جذبة واحدة قوية.. وانفتحت الضلفتان.. فانهمرت الأوراق تنزلق شلالاً متربًا متهالكاً.. ودوسيهات وهنت استسلاماً.. فلم تعد أطرافها مسنونة تقطع أو حتى تخدش وهى تتدافع فى لحظة الإفراج المباغت.

انحنت.. جلست على ركبتيها فى وضع السجود.. بليونة من لم يشكُ آلام المفاصل سنوات.. ولم يبتلع صفوفاً من ألوان وأحجام المسكنات.

توقف الشلال.

هذا دوسيه كتبت له عنواناً «أحلام عبيطة».. تحفظ محتواه إنها أحلامها وزملاؤها.. كانوا يكتبونها لبعض ويعلقون عليها أثناء المحاضرات في آخر شهور الدراسة.. قبل التخرج والفراق.

مزقتها بكل فرح وارتياح.. لأنها فعلاً «عبيطة» تشبه أفلام الكارتون الأجنبية.. أبطالها أصبحوا أوهاماً.. يصلحون للفرجة والتسالى فقط.

وهذا هو الدوسيه الأزرق.. حاضن ملاحظات أستاذها العزيز.. الذى كان يعلم المثاليات فى الجامعة.. والذى رشحها وأخذها للعمل معه فى نفس المصلحة.. وظل يتابعها ويرسل لها ملاحظاته فى الوقت الحرج.. قبل أن تنسحب يأساً أو قرفاً.. فيشد عزيمتها وتمر العاصفة وتتعلم.

لم تتنهد.. بل ضحكت وهى تخفى الدوسيه تحت الكتب.. الله يرحمك ياأستاذى.. والله أيام المثاليات كانت حلوة.

ودوسيه ميرى لمكاتبات مع رؤساء سابقين وحاليين.. وصور التقارير السرية لموظفين خرجوا لسوء السلوك.. جرت بسرعة على العناوين.. تورط.. تواطؤ.. اشتباه واستهبال.. و... و..

لم تمزق الأوراق هذه.. بل فرمتها وهى تضحك بفرح صاف.. ياترى من العبيط اللى سرق واللا المسروق!

بطفولة نفخت بقوة فى أشلاء الأوراق وصاحت.. عصافير الجنة!

أصبحت المكتبة نظيفة.. جميلة.. دخلها الهواء.. نفخت بقوة فخرجت حشرات الأوراق وفراشاتها الرمادية الكئيبة كلها..

وقفت تصيح فى المكتبة كعفريت المصباح السحرى.. الآن انفخ فيك.. فتتحولين من تابوت إلى ماذا.. إلى ماذا؟.. لم تكمل عبارتها.. فأسعفها ملاك الفرح «بشمة» فرح للإفاقة.. آه إلى مهد دائم لملعب أطفالى.

خلعت ضفلتى المكتبة فحملهما الهواء عنها خارجاً.. وتحولت إلى رفوف بيضاء مفتوحة.. رصت فوقها عرائس بريئة خجولة.. وقططاً فراؤها أبيض.. ودباديب كلبوظة.. وطيوراً وحيوانات كلها أليفة نظيفة.. مدللة من الوفرة والرخاء.. تنام بوداعة من تحتضنه أشعة الشمس.. تنطلق منها موسيقى الفرح لأقل لمسة.. أو اهتزاز حولها.

وأشرق الصباح قوياً.. وهى تتلقف مياه الدش البارد على دمها الحار تعجبت.. كيف تصورت احتراق السخان فى الشتاء كارثة!

وهى تقف على محطة الأتوبيس.. استنكرت غباءها القديم.. وخجلت من إلحاحها لتخصيص عربة لها من أسطول عربات المصلحة المسروق.. لخطورة ما تحمله من أوراق على الأقل.. وتمنت العمر الذى فقدته فى ملاحظة الفساد والتأكد منه!

إنها الآن تعيش الفرح الحقيقى، وهى أحد أفراد الحشد الصباحى المنتظر للأتوبيس.. الساخط.. والقانع.. والمدفوع بلا إرادة.. أو بحماس الدفع الذاتى.

داخل الأتوبيس.. شقت ضحكتها العالية الصافية الصمت والزحام.. وغمزت بعينها للنشال الظريف.. الذى لا يسرق أهل حتته أبداً.. فرقص الملاك.

حالة اشتياق

إن جسدها موجود على الفراش بالتأكيد.. ولكنه مسلوب.. تزلزله نبضة اشتياق عنيفة لأمها.. نبضة اشتياق تدفعها باستماتة لزيارة أمها الآن.. وفوراً.. تغريها بمشهد احتضانها أمام باب المنزل بكلمتى «أهلا وحشتينى».. ودفء حقيقة تداخل أنفاسهما!!

انساقت بسعادة لمشاعرها المحمومة بفرحة اللقاء.. كهربتها برودة ملمس مقبض الباب.. فانتبهت.. إنها بقميص النوم.. وشبشب أمها المخملى الأزرق المطرز.. وبيدها المفاتيح.. لا تعى سوى أنها فى طريقها لزيارة أمها.. انصتت.. فأدركت أنها فى فجر يوم خريفى جديد.. وأن أطفالها وزوجها نيام.

تخلصت من قميصها.. والتقطت فستاناً بسيطاً وجاكيت بالتخمين.. والفرشاة لتلملم ارتعاش شعرها.. فتذكرت توكة ابنتها الملقاة على أرض المطبخ، انحنت تلتقطها.. وهى تعود بقامتها.. اصطدمت عيناها بعلبة البن.. فتباطأت.. وضعت كنكة القهوة الكبيرة على نار البوتاجاز الخافتة.. ذرات البن المحوج فتحت مسامها فترنح جسدها المحموم بالاشتياق.. جلست على المقعد الخشبى الطويل لتتماسك فى انتظار قهوتها لتسرع لأمها.

هاجمتها بدون مناسبة ومضات لصور نادرة لمنزل ميلادها القديم بشبرا.. رائحة كعك العيد.. والبلكونة الكبيرة الملتفة.. الصاخبة بصغار أولاد وبنات العائلة بالملابس الجديدة والبمب والصواريخ..

صورتها التذكارية وهي فى حضانة **الراهبات** بالفيونكات البيضاء الناصعة.. والأكمام السوداء لتشكل **الصلصال** بحرية.. وصور مشوشة باهتة لملامح المنزل.. **تقطعها صورة** نقية لشباب أمها.. بيضاء.. نحيلة.. طويلة.. أنيقة **جداً و«شقية»** صوتها المرح عال دائماً.. شعرها الأسود الناعم **يحيط ببريق** عينيها الخاص.. الذى يحيرها سره للآن.. فهو مزيج **غامض** من الحزن والمرح.. لها «سرحات» ونظرات مباغتة كأنها **فى مناجاة** متواصلة مع عالم آخر.. وإذا ضبطت متلبسة تتخابث بمرح.. **ولا تبوح** بسرها أبداً..!

انبثقت أول خيوط الصباح.. **فأطفأت** نور المطبخ رغم غلالة الخريف.. وركزت عينيها على **تراقص نار** القهوة الخافتة وقبضت أصابعها على مفتاح منزل أمها **فى جيب الجاكيت**.. ورأت نفسها تفتح الباب بهدوء وتتسلل على ضوء **«السهارة»** لحجرتها فى آخر الممر.. بلاطها البارد مازال لامعاً.. **والشماعة** خالية كيوم الغسيل.

«ماعدا قميصى الأصفر الذى تمسكت **ماما** بوجوده بعد زواجى.. ملابسى قبل الزواج مرتبة داخل **الدولاب**.. ولكن لماذا هى صامتة»؟!

وهى تدلف بقميصها الأصفر تحت **الغطاء** الثقيل البارد.. تجاهلت رائحة التراب.. والتقطت نفساً **عميقاً**.. وتركت مساحة لعينيها لتتأمل رسوم السجادة الصغيرة **المتآكلة**.. المطلة من تحت السرير.. فسمعت صخب أجزاء متداخلة **من** حوار.. وحكايات وأحلام وخناقات كل أيام عمرها مع إخوتها **الأربعة**.. تتساقط من سقف الحجرة وحوائطها.. وتخرج من أرفف **الدولاب**.. وأدراج المكتب.

انطلق صوت «المنبه» من حجرة أمها الملاصقة.. ثم أصوات اختلاط محطات الراديو بأصابع تقاوم النوم.. ومعها صوت أمها الأثير.

- «ياراجل بقى لى أربعين سنة أصحى على دوشة الراديو حرام عليك عاوزه أنام».

وتضحك هامسة لتحتفظ بمفاجأة وجودها لأمها.. هاهى ملعقة الشاى تدور فى كوب أبى الكبير.. بعدها يصب لها الكوب الصغير ويحيطه بأقراص دواء السكر.. ليظل بجوار سريرها حتى منتصف النهار.. حين تنتهى من إعداد المنزل والطعام.. لتعيد تسخينه وتبلعه مع أية «لقمة» بلا شهية.. يحتويها كرسيها فى ركن البلكونة.. ونظراتها تسرح فى أبعاد الشارع.. تتلهف على الوجوه المألوفة.

«صفقة الباب القوية معناها خروج أبى لعمله.. هاهى خطوات أمى الحنون تقترب.. لتجلس على حافة سريرى.. وتزيح الغطاء بحذر.. وتسأل السؤال اليومي.. «إيه مفيش شغل النهارده؟»! ولا تتلقى الإجابة التى تتمناها أبداً.. ولكنها لا تفقد حماسها وتواصل «طيب بس ما تتأخريش.. تحبى تأكلى إيه النهارده.. أنا زهقت من الطبيخ والتنظيف ونفسى أطفش.. لكن أروح فين»!!

وتواصل حكاياتها المتكررة التى لم تسترع انتباه أى من أفراد أسرتها أبداً.. وهى تدرك هذا.. ولكنها تنتهز اللحظات النادرة للكلام مع شخص آخر.. قبل أن تلتقى وفراغ المنزل لساعات طويلة سخيفة.. فى انتظار صمت العائدين من الأعمال محملين بالإرهاق

والإحباط والمشاكل والأنانية.. باحثين عن الطعام الساخن والفراش النظيف.. وعن دفء وأمان وجودها.. واستقبالها المتلهف.. فقط!

قررت مشاركة أمها في أحاديثها عن جحود الجيران وغيرتهم.. ونذالة البواب.. وجنون أسعار الخضروات.. ولكنها تراجعت.. فلن تنخدع أمها.. وستكتشف ما بأعماقها من وحدة وبرودة واشتياق.

أيقظ شرودها صوتاً كالصفير الخافت المتواصل.. واقتحمت أنفها رائحة نفاذه.. حملقت فاكتشفت أنها بمطبخ منزلها.. يدها متصلبة على المفاتيح.. والقهوة تغلي وتنسكب.. ثم تغلي.

همت بالقيام لإطفاء النار فلم تستطع.. وغلت كل مشاعرها.. وانسكبت كل دموعها مع بقايا القهوة الملتهبة.. فهي لن تجرؤ على دخول منزل أمها.. ولا على الاحتماء بفراشها القديم.. لأنها لن تستطيع المرور على حجرة أمها الخاوية منذ عام.. ولن تخمد نار اشتياقها أبداً.. أبداً!!

قمر ١٤

من خلف المصور الذى يلتقط صورة لابنتي.. رأيت الزمن يتجسد أمامي.. وبالتحديد لحظة أن سلط الكشافات وأضاء وجهها وعينيها.. وثبتت هي بخجل لتسجل بكل بساطة لحظة لن تتكرر فى عمرها.. المصور محترف.. مزدحم بالذكريات.. رافض للحاضر هو وهذه الغرفة المهملة.. صامت بعيون ثرثارة ثاقبة هو ورفاقه لوازم الصنعة.. كرسى «لوى كانز» توأم لكراسى المآتم والأفراح.. «بوكيه ورد» صناعى جفت طراوته منذ زمن.. «شيزلونج» الهوانم وأرتيستات زمان بتنجيد ساتان أحمر.. وكرسى مطبخ طويل كأننا فى بدروم مهجور لاستوديو مصر.. حوامل كشافات.. شماسى إضاءة.. وعلى حائط خلفية التصوير أربع شرائح قماش طويلة تخفى خلفها شباكاً وهمياً مرسوما برومانسية إنجليزية قديمة..

هو الوحيد الذى يفتح أبوابه فى الإجازات ولزبائن آخر لحظة.

لم يسألها سوى سؤال واحد وبملل وهو يترك مقعده فى الشارع ويتقدمهما للداخل - مارين بما يشبه الكهف - ويشير للإبنة بالجلوس على كرسى المطبخ.

● ثانوية عامة؟

- لا.. إعدادية.

● فكى شعرك.

قالها وهو يجذب الستارة السوداء خلفها.. تدخلت لإنقاذ الموقف وأجبت عنها بنبرة خانتنى، وخرجت شاكية:

- «لا تحاول.. صورها كما هى».

نظرات اللوم والتنمر التى أطلقتها نحونا أخرستنا.

وهو يضىء الكشافات.. صدر عنه صوت رتيب كتسميع محفوظات عقيمة.

● «إرفعى ذقنك.. ابتسامة خفيفة.. لا تغلقى عينيك.. انظرى لكتفى.. خلاص الاستلام غداً والدفع مقدم».

ذهبت بلهفة غامضة.. تسلمت مع صور الشهادة المتكررة كارت بوستال ملوناً لفتاة رائعة تشرق من رداء الطفولة.. لمن تنظر؟!

حاولت قراءة نظرات ابنتى.. ليست شقاوة طفولة تدفعك لاحتضانها حباً وفخراً وحماية.. وإنما صديقة تبحث عن يدك وعقلك وحبك.. وكل صبرك.

لغة عينيها صعبة تحتاج تركيزاً وجهداً فى القراءة والتفسير.. لكن المفاجأة أن عينيها أعادتنى بسرعة البرق لنظرة طبق الأصل فى صورة مماثلة تخيلت أننى نسيتها تماماً.. وفرحت لأنها مازلت مختبئة فى الذاكرة.. وبالتأكيد هى موجودة بالمنزل فى مكان ما وسط الأوراق الحميمة.. هى بالذات مثبتة على كرتونة بيضاء تحمل توقيعاً جانبياً أنيقاً «ستوديو مصر». يااه.. لم تتغير، لكن العمر خطف بريقها وتبدلت من أبيض وأسود إلى أصفر ورمادى.

تهت حتى ترنحت.. صورة ابنتى ألوان.. لكن نظرة العيون العسلية واحدة.. نفس المشاعر.. أما لمحة التحدى هذه فكان لها سبب وحكاية.. يومها رفضت أوامر التصوير بزى المدرسة..

وأقنعت صديقاتى بالتمرد.. وارتديت فستان العيد هذا بإصرار..
لونه أحمر من الصوف الإنجليزى السادة الناعم.. اخترت موديله
مجرد فستان «برنسيس» بسيط بكول مرتفع يخفى رقبتى الطويلة..
ثم ينسدل ليحدد وسطى النحيف بدقة.. بعدها ينطلق واسعاً حراً..
وصممت أن تشبك الخياطة به «چيليه» كاروهات واسع قصير
مشقوق من الأمام.. لأخفى معالم أنوثتى المبكرة.. وإلا فلن أرتديه..
وأعود بسعادة للبنطلون والقميص الواسع.

هل كان زى الإعدادية چوب رمادى أم كحلى؟!

جاءنى وجه أمى بنظرة عتاب.. لأننى لم أفهم سر فرحها
وإصرارها على وضع صورتى هذه فى برواز بالصالون!

من هذا الصباح سأتوقف عن تأنيب ابنتى بعبارتى السخيفة «فكى
شعرك».. لن يستفزنى إصرارها على قمعه وطيّه داخل شرائط
عريضة تضمن عدم تمرد أى خصلة حريرية منه.

نظرة تأنيب حادة تنطلق من صورتى فى وجهى.. ها هو شعرى
شاهد ضدى.. ظل لسنوات أقصر من شعر الصبيان.. وها هى لحظة
جلوسى أمام المصور ليسجل الصورة.. يقف أمامى حائراً لأنه فنان
ويرى خطأ ما.. يتركنى أقاوم بعجز تحمل ملاحظاته الجارحة عن
شعرى القصير.. يختفى ويعود وبيده هذه التوكة الموجودة
بالصورة.. ضفيرة قش أو سيلوفان مصبوع خصلات أبيض ×
أسود.. يرغمنى على الوقوف أمام المرآة لأضعها إطاراً حول رأسى..
وأن أسعد جبهتى بخصلة أنوثة ولو قصيرة.

تدمع عينانى من الغيظ وليس من الفلاش.. وهو يأمرنى بحسم أن أرفع ذقنى وكتفى وأنظر باعتداد لكتفه.. وفعلت.

أعترف أنى لم أفهم معنى النظرة التى سجلتها لى الكاميرا إلا اليوم.. فى هذه اللحظة وأنا أمام محل التصوير عندما التقيت فجأة بنظرات ابنتى.. وأكاد أسمعها تقول بعبارة قاطعة.. لن أبروز هذه الصورة ولن أضعها «فرجة» فى الصالون.

وظل لها سحرها الخاص

يدق جرس الفسحة ونجرى.. نجرى بسرعة لنهاية الحوش.. ركننا اللذيذ.. من تصل منا أولاً تحجز الدكة الحجرية الباردة صيفاً وشتاء للشلة.. حتى أصبحنا لا نحتاج للجرى والحجز.

واليوم أتعجب من اختيارنا وإعجابنا بهذا المكان المعزول بين حجرة الجرس والحنفيات!!

موضع انتمائنا هذا.. مازلت أراه واضحاً بعد ثلاثين عاماً!!.. أرى نحاس الجرس العملاق كأجراس الكنائس.. وصف الحنفيات المطلة على الحوض المستطيل الطويل .. حوض واحد عميق أبيض متصل.. وحنفيات جافة إلا اثنتان لا تنقطع مياهما إلا بإغلاق المحابس وأبواب المدرسة خلفنا.. فى هذا الحوض سبحت مراكب أوراق الامتحانات.. المياه الجارية تغسل الأصفار والاخطاء وغضب القلم الأحمر.

فى ركننا نأوى.. خلفنا الشجرة العملاقة مستندة على سور المدرسة.. تظللنا.. تتطفل على أسرارنا.. ترفرف أغصانها حاملة أحلامنا للسماء.

نلتهم السندوتشات دون إدراك ولا شبع.. لأن حواسنا معلقة بشفاهها وهى تحكى حدوتة خرافية جديدة.. أو تستكمل حدوتة الأمس.

حتى أيام الامتحانات.. نظل مشدودين لسحرها وهى تحول التاريخ والجغرافيا والحساب الى حواديت خرافية حية.. نراها

ونلمسها ولا ننساها أبداً.. نغزو الامتحان بجسارة.. وحب لما ذاكرناه.. وفرح بأنفسنا لأن لنا قيمة وعقلاً وإرادة.

بم كانت تتميز عنا؟!

ليست الأجمل.. ولا الأشطر.. كانت فوق المتوسط فى كل شيء.. لكن لها سحرها الخاص حتى فى صمتها.. وكنا لا نصدق انها تخترع حكاياتها فى التو واللحظة.. ولا نصدق انها فى مثل عمرنا.. و«هيافتنا» تلعب معنا الحجلة وتقع.. تدخر مصروفها أحياناً لتشترى «دودة القز» وال«سكوبيدو» من خلف أسوار المدرسة.. تتحايل وتخالف تعليمات الالتزام بقيود الزى وحدوده.. تعاقب مثلنا فى التفتيش على الواجب وتدعى انها نسيت كراستها.. تشترك فى أغلب الأنشطة المدرسية بنفس الحماس والتميز.. تساهم فى النميمة على حجرة المدرسين.. تردد معنا أغانى أتوبيس المدرسة.

ولكنها ليست مثلنا.. والوحيدة التى كان المدرس يعتذر لها إذا صدرت عنه إهانة ومستها ولو من بعيد.

فى هذا الركن.. كنا ننسى أننا فى المدرسة.. ننفصل تماماً.. كأننا مغلفون بسيلوفان شفاف.. لا نسمع خرير المياه.. ولا صراخ الفسحة.. ولا نشم رائحة المراحيض.. ولا نتنفس التراب الذى تثيره الأحذية السوداء المتداخلة.

نخرج من أسر مريلة المدرسة وجدول الحصص.. وديكتاتورية المدرسين.. وقهر الأسئلة وذل الامتحانات.. إلى عالم جديد تخلقه هى لنا كل يوم.. عالم مستحيل.. رائع.. رحب.. فيه حدائق وطيور

وسفن وفضاء.. به كهوف مسحورة.. ومخلوقات انقرضت وعادت بشكل حديث.. وبشراً ولدوا أطفالاً مثلنا لكنهم لم يسجنوا فى دورة الحياة التقليدية.. لم يكرروا شكل حياة آبائنا وأجدادنا..

مدرسة.. عمل.. حروب.. موت.. إنما اختاروا من دفتر الأحلام والخيال ما أعجبهم من أشكال الحياة.

وتحكى لنا عن فتاة مثلنا.. طلبت من أحد آلهه اليونان المتمردين أن يمنحها يدين بدلاً من قدميها.. لأنها تحتاج أربعة أياد لإنقاذ العصافير من الغربان.. ساومها الإله.. ووافق بشرط أن تتحول يداها إلى قدمين.. وتسير على أربع إذا فشلت فى إنقاذهم.. توافق.

ونظل أياماً نتلهف على مصير الفتاة.. الذى يؤجله إصرار عم «رزق» على دق جرس الإنذار بانتهاء الفسحة.. وصراخ صفارة التجمع للطابور.

لا أتذكر مصير بطلات حواديتها.. ولكنى لم أنس بعض التفاصيل.. وغرابة خيالها الذى منحنا لحظات خاصة بنا.. تغلبنا بها على ملل تكرار أيام الدراسة.. وذل النتائج.. وما تصورناه تزمت وقسوة راهبات المدرسة.

واستقرت فى أعماقى أحلامها بالهروب إلى عالم جديد.. كانت تصفة بلغة راقصة قوية صاخبة.. كإيقاع وأزياء راقصات الفلامنكو.. كانت حكاياتها تنقى هواء المدرسة.. نتنفس أكسجيناً خالصاً فى ركننا الخاص.. ويتدفق النبض والحماس وتتورد خدودنا ومشاعرنا.

كبرنا.. خرجنا من مدرستنا وحصتنا.. افترقنا على أبواب الجامعة.

اختارت هى الفنون الجميلة.. وتباعدت اللقاءات.

لكن آلهتها الإغريقية.. وراقصاتها الإسبانيات استمرت حية ونشطة.. كانت تجمعنا أيد خفية صدفة فى أماكن وأوقات غريبة.. ونفترق بعد تجدد اشتياق ووعود أكيده بسرعة الاتصال.. لا تتحقق!! ربما كنا نخاف أن يفسد الواقع ذكرياتنا الجميلة.. أعتقد أنه غالباً وليس ربما.. لكن هذه المصادفات العجيبة للقاءاتنا أكملت ملامح تفردها.. كأنها غير حقيقية هى أيضاً.. كأن قدرى الغامض كامناً فى هذه المخلوقة.

مثلاً.. فى يوم اختنقت من حصار العمل والمنزل.. وتكرار الوجوه والأحداث والتوقعات.. تذكرتها.. افتقادى لها أتى بطيفها أمامى.. تعيد حواديتها.. وأحلامها المستحيلة والممكنة.. طيفها استخرج رغبات خذلتها بوعود مؤجلة.

كم مرة قررت تعلم اللغة الإسبانية.. وزيارة المسرح الذى سردت حكاياتها على إيقاع جموحة وزهوره المتوحشة.

وأنا أتسلم جدول الدراسة من المركز الإسبانى.. لمسنى دفء بدد إحساس بالغربة.. ماذا ينتظرنى؟

وجدتها..

هى نفسها لم تتغير أبداً.. أطل الفرح من عينيها وغمرنى مع العناق باشتياق هادئ عميق.

جاءت تدرس مبادئ الإسبانية لأن حبيبها ينتظره مستقبل ساحر كأحلامها فى السلك الدبلوماسى.. وهو يتقن اللغات الرئيسية ويعرف ملامحها.. لكنه لم يدخل جنة الأندلس بعد.

قـررت أن تـكـون مكـملة لاحـتـيـاجـاتـه.. هو يـسـتـكـمل دراسـة الكمـبـيـوتـر فى مـركـز مـجاور.. معاً تـكـتمل لهـمـا مـفـاتـيح اقـتـحام العالم.. تفتح لهما الحضارات كنوزها.. لتغترف منها وتملأ مخازنها ومـدنـهـا الـسـاحـرة بـحـواديت تدخـرها لأطـفـالـهـا وأحـفـادها وأيامـهـا القادمة.

أمضينا شهراً معاً...

عدنا إلـى ركن حوش المدرسـة.. تـتـجـدد شـرايـيني.. وعـزيـمـتى.. نضيف إلى رصيدنا أحداثاً مشتركة طازجة.. وأسراراً صغيرة بعضها برئ.. عـدنا صـديقـتين مـتـشـابـهـتـين.. ضـوت مـشـاعـرنا.. زفـرنا العادم.. تجاوزنا سخافات الالتزام.. دخلنا غلاف السيلوفان القديم.

معها حلقت شـهراً فوق الواقع.. بهت القـبح.. غمرنـى السلام.. وجودها أزال الصدأ عن طفولتى.. عدت «أنا».

واختفت كما ظهرت..

لم أحـزن.. ولـم أنـدهـش.. ولـم تـغـمـرنـى الوحـدة.. إنـهـا قـدرى وستلاحقنى وقت الاحتياج.. والجديد أن وجودها فى غيابها أصبح واضحاً حياً فى حياتى.

تزوجنا..

تزوجت هى أولاً بنفس مفـاجآت واقعـهـا الخرافـى.. وصلنى منهـا كارت الفرح العجيب.. كان دعوة على موجة بحر.. من قائد باخرة إلى جـمـيـع الـركـاب لحـضـور حـفل ارتبـاط قلبـين فى عـرض البـحـر المتوسط.

وبدأنا مرحلة مختلفة من التواصل..

خطابات طويلة وكروت ترسم فيها المكان والأشخاص والأحداث.. ترسمها بالمشاعر.. أحساسها بالمكان.. بالزوج.. بالطبيعة.. خطابات على سحب تحملنى خارج الزمن مرة أخرى.. تحكى أحداثاً نهاياتها مفتوحة.. وترفض إرسال صور فوتوغرافية رغم إلحاحي.. تريد ألا ينتهى الخطاب بقراءته. بل يبدأ.. تعرف أننى سأرسم المشاعر التى وصفتها.. وملامح الأشخاص.. والأبطال.. وأظل أياماً أختار وأحتار وأطابق حتى يكتمل الخطاب وتسكنه الصورة.. ونتصافح إلى لقاء.

أربع سنوات من الرسائل المتبادلة.. أحكى لها أنا أيضاً عن الشريك الذى وجدته ووجدنى.. تتلقى مشاعرى وترسم ملامحه.. تلقاه وتدخل منزلى وحديقتى.. ولا نتعجل مواجهة الواقع بالخيال.. نتركه للقدر.

تتباعد خطاباتها.. وتختلف..

تنبش فى الماضى.. تقلب فى تربته.. تنعشه وترويه.. وتعيش فى حدائقه فترة تخفت فيها ملامح عالمها الجديد.. ثم تستكين.. ولا نتلقى من بعض ألا كروت المعايدة فى كل المناسبات.

وتعود..

أسمع صرخة قوية.. اسمى يدوى مصحوباً بكلاكسات متلاحقة.. ومطاردة كزفة فريق كرة قدم أحرز هدفاً.

ألتفت للسيارة المجنونة التى تلاحقنا.. أجدها.. هى.. لحظة أم لحظات.. ماذا حدث؟ لم أعرف أبداً.. سوى أننا تصادمنا.. تلاكمت الرفارف.. توقف المرور.. دوت أبواق ولعنات حولنا..

تحولنا إلى مشهد عبثي ونحن متشابكتان في عناق ودموع اشتياق.. بينما أعصاب زوجانا تحترق من خسائر السيارتين.. ومن هبط من الفضوليين لعن أبو جنان كل امرأة من نسل حواء.

كانت قادمة من المطار.. وكنت في طريقي إليه في رحلة هروب اسمها «نقاهة».. قررت مرافقتي.. هربنا في تاكسي بعدما لحت كل منا زوج الأخرى وهو يصافح الآخر ببرود.

سافرنا إلى بعضنا.. عدنا امرأتان بمريلة المدرسة.. فردنا الأجنحة والأشرعة.. تساقطت كل الأحمال.. تناثرت وتبخرت دون جهد منا.. ارتفع بنا بالون نحلق فيه بين السماء والأرض.. بعينيها حزن وتسألني لماذا أنت شاردة؟! يجيبها صمتي.. لنفس أسبابك!!

تصمت المخلوقات.. سكون.. نفتح قواقعنا.. تحكي:

«زوجي كان صديقي قبل احتراف المهنة وعشقها.. كانت أنهارنا متدفقة أقام فيها سدود أسرار وقناطر هروب وتواصل.. لم يعد يخلع دروع المهنة لنلقيها معاً على ضفاف أنهارنا.. ونسبح في ضوء القمر.. عجزت عن مشاركته التمثيل.. أصبح يعتذر عن غيابي.. ثم اعتاده واستراح.. حتى غاب عني تماماً.. ركدت مياه النهر ولم ننتبه!

صوت دعاء الكروان أيقظني في ليلة.. استقر على نافذتي يوقظني.. هل كان قادماً أم راحلاً؟!.. الكروان له حق الترحيب. لكن السفير نائم.. وجدتني لا أوقظة إنما أنظر إلى وجهه وأتساءل: من هذا الغريب!. أتأمل نفسي والمكان. ماذا أفعل هنا؟.. أرافق ممثلاً دبلوماسياً وليس حبيباً تزوجته وانطلقنا معاً.. أعيش في مقر بعثة

وليس بيتاً يتشرب أنفاسنا.. أحلامى فى حالة انتظار لم تخرج من حقائب الترحال.. هل مازلت حية؟! .. هل مرق تاريخ صلاحية أحلامى؟!

هنا قررت العودة لأبحث عنه وعنى.

امتد حوارنا أياماً.

أشرقت علينا شموس.. وعششت عصافير غروب.. تلألأت مياه النهر ترد غزل القمر.. صاح الديك.. ابتلعت الزهور قطرات الندى وتفتحت.. عادت نفوسنا صافية قوية.. أعدنا ترتيب خلايانا.. بدلنا مواقعها.. طوينا مريلة المدرسة واحتفظنا بأجنحتها.. وطوينا فستان الزفاف وسحبنا من فرحته.. نسجنا من ريش الأجنحة ونقاء الفرح رداءً جديداً فضفاضاً.. أودعته سحرها.

عدنا..

من نسيج ردائنا الجديد.. صنعنا قارباً وشراعاً.. انتعش به النهر.. جدد عشقه للرياح وعاد يتدفق.. دخلت كل منا قاربها عائدة.. نظرت إلى زوجها.. ملامحه تطابق صورته التى وصفتها فى خطاباتها الأولى.. انتصرنا!.

أهدتنى قطعة من نسيجها المسحور.. أصنع منها دروعاً وأجنحة وأشرعة وقواقع شفافة.. ليظل النهر متدفقاً.

تفاصيل سبق صحفى

عيناها متلهفة.. تتعجل تتابع الصور من شباك مترو مصر الجديدة.. هواء الصباح المنتعش ببقايا الندى يشحذها بالصفاء. فتتدافع كلمات موضوعها فى الهواء.. بعضها يطير لأعلى.. والآخر يتصادم صارخاً مع ضربات عجلات المترو بالقضبان.

وعقلها لا يتوقف.. يرتب ويبدل صوراً أخرى تحمل نسخة منها فى حقيبتها القابضة عليها هذه.. صوراً كثيرة لمرضى يموتون من النزيف فى المستشفيات المجانية.. ولأطفال تدهمهم الصفراء من دم ملوث.. وطوابير لأجسام مطحونة معروفة تنتظر منذ شق الفجر.. لتبيع حصيلة ما أفرزت فى أسبوع.. وصوراً باسمة لامعة لمسئولين يجب إعدامهم.. لن تنشرها!

ولاح بخاطرها أن تنتقم منهم الآن.. بأن تلقيهم من شباك المترو.. وابتسمت.

المهم أن اليوم هو آخر وأخطر أيام التصوير.

قفزت من باب المترو قبل أن يستعدل وقفته المرتجة.. فتخيلت الكمسارى يرفع لها أصابعه بعلامة النصر وليس بصفارة الخطر.

تقافزت السلالم العريضة للمؤسسة.. وهى توقع بالحضور فى الساعة.. اختلست نظرة سريعة للمصعد.. الذى يحمل الجميع لأعلى ولأسفل.. عمال وموظفون.. صحفيون ومندوبو إعلانات.. لبعضهم وجوه متثائبة تبحث عن وسادة من دوسيهات المكاتب.. ولآخرين وجوه نهمة تحمل «السامسونيت» استعداداً للصفقات.

قبل أن تلتقط أنفاسها فى الدور الثانى.. تبعها «حريف» مصورى الدار وأشجعهم. بكاميراته والزووم.. وأفلام كثيرة.. وبحماس ونشوة لحظة الصفر.. ولكن فى عينيه قرأت العبارة التى تخشاها دائماً..

«رائحة صفقة»!

بحسم منعت مدير الجاراج منِ الاستطراد فى عبارات الاعتذار الكاذبة.. عبر التليفون.

وأين العربات اليوم؟

- واحدة فى سوق خضار المدير.. وواحدة فى توصيل أولاد (نواب المدير للمدارس). والثالثة فى توصيل الهانم للعجمى.. والباقى عطلان.

صرخت فيه وهى تسحق «بون» حجز العربة بيدها.

- و«الشغل»؟

- فأغلق الخط بينهما!

اشتعلت عيناً زميلها الضيقتان بالتحدى المألوف.. وخرجا لتسجيل النهاية.

داراً حول جميع مداخل بنك الدم.. كلها مغلقة.. ولا أثر لمصادرها «حراس المخزن» وبعد إلحاح.. فتح لهما موظف أمن خامل طاقة صغيرة.. خرج منها صوت صدئ.

«البنك مغلق لمدة أسبوع»!!

بكل ثورتها اندفعت إلى مكاتب رؤسائها الكثيرين المتدرجين بالأقدمية فقط.. فأخرستها نظراتهم الشامتة.. المطلة من وجوههم

الصفراء الممصوصة.. ذات الأسنان السوداء المتباعدة.. التى تنبعث منها الروائح كلما تقاذفوا عبارات السخرية المقتضبة لتودع أمثالها من «المغرورين» !! أصحاب مدرسة «الصحافة هى صوت المظلومين أولاً» !!

بحسم قررت الاستنجاد برئيس مجلس الإدارة.. ستفضحهم.. وستكمل موضوعها الخطير.. كفاهم صفقات.

غلبتها بعض دموعها فتساقطت بسرعة هبوطها درجات السلم.. ستركز مشكلتها.. وبالتأكيد ستخرج بعد دقيقة واحدة بقرار سوف يدوى فى المؤسسة طويلاً.

- باختصار.. أكبر بنك حكومي يمتص من دماء الأطفال والموظفين مقابل شهادة شرف أو زجاجة لبن..

وكل دماء الفقراء مقابل ثمن الخبز.. ومدير البنك يملأ به خزائن بنكه الخاص بدعوى فساده.. وإعدامه فى حضور موظفين ساقطى الذمة.. وثلاجات حفظ الدم المستوردة منهوبة ومعطلة فى المخازن السفلية منذ خمس سنوات.. فى انتظار خبراء لم يستدعهم أحد.. وكنت اليوم على موعد ووعد مع حراس المخزن للتصوير.

هذا يكفى.. سيفهم.. ولكن أى باب أطرق.. هنا لمبة حمراء.. وهنا.. وهنا السكرتارية.. دخلت بثقة.. سألتها السكرتيرة المتمرسة بفتور المخبرين.

● «عاوزة تقابليه» ادخلى..

- ولكنه لا يعرفنى.. وربما..

- لأ.. يعرفك كويس.. ومنتظرك !!

طرقت الباب بأصابع وجلة.. متحاشية النظرة الطويلة للسكرتيرة.. التي لا يشي مظهرها بحقيقة رئيسها.. وبمجرد أن دلفت في ثقة واعتداد أصحاب الحق.. أدركت أنها ليست في عرين أسد.. كما يجب.. وإنما هي في وكر ذئب.. رائحة المكان وترتيبه.. والنظرة المنكسرة المتخابثة فضحته..

رحب بها - لدهشتها - بحرارة.. وقبل أن تعتدل في جلستها الشامخة.. أطلق عليها مفاجآته كالقذائف.. فتقوست يأساً.. فانتهز الفرصة وباغتها هو بالبكاء.. بدموع تلقفتها يده على مناديل من الورق.. وأخذ يبثها وجيعته.. وصدمته ممن جعل منهم أسماء مرموقة.. فأطلقوا سهامهم إلى صدره وظهره.. وقلبه!!

ومضت لمبة حمراء في التليفون.. فضغط على جهاز يحدث السكرتيرة بحسم.. لا مكالمات.. أنا مشغول!

انسحبت بقضيتها التافهة.. خجلة معتذرة من اندفاعها.. فلتتأكد أولاً قبل أن تضاعف إحباطات قلب المسئول الباكي.

أغلقت بابه خلفها.. ووقفت مترنحة.. مشوشة كالغائبة.. ولكنها انتهبت لصوت السكرتيرة الموحي.. وهي تجيبه:

«لا ياافندم.. ده مدير بنك الدم.. بيسأل الميعاد امتى؟».

«وإنما.. أنت نسيت» !

تطلبين خطابات بإلحاح ولا تراسليني.. لم لا تبدئين الكتابة أنت.. أم أن طلب الخطابات اعتياد.. كالسؤال عن الأحوال! حسناً.. سأحاول للمرة الأخيرة.

تسألين دائماً كيف حالكم؟.. عن أى حال بالتحديد تسألين.. وعلى أى أخبار تتلهفين؟.. وما الذى تذكرينه لنتواصل؟!

انتظرى.. أمهليني لأبحث.. لأنقب فى الأشياء.. آه.. الزرع.. بالأمس اشتريت نبات ظل جديداً.. نسيت اسمه لأنه هولندى.. وضعته فى قلب الإصيص البنى المجدول.. فى نفس الركن بغرفة المعيشة.. أتذكرين هذا الإصيص الذى اشترينا زوجاً منه اقتسمناه فى بداية الربيع.. متى كان ذلك.. في صيف عام ٨٠.. غالبا.. كانت أول مرة ننطلق فى السوق.. نمارس هواية الشراء بعد ميلاد سلوى وتطوع أمى برعايتها بفرح..

تصورى أن الإصيص استمر فى مكانه خاوياً منذ الشتاء الماضى.. بعد أن ذبلت أوراق نباته القديم كلها ببطء.. ورقة ورقة.. لم أحاول رفعه من مكانه.. ظل قابعاً بطميه الجاف حتى غرست فيه نبات الأمس.

لو كنت رأيت مراحل ذبول النبات الرائع القديم لكنت حزنت كثيراً.. لم تفلح معه أسمدة أو تقليب.. أو إضاءة مستمرة.. كأنه قرر الموت.. فبدأ اللون الأخضر ينسحب من أطراف الأوراق القوية

العريضة أولاً. حتى أوراقه الوليدة.. احترقت أطرافها رغم نضارتها.. والغريب أنه رغم تساقط الأوراق كلها.. إلا أن السيقان اليابسة استمرت معتدلة صلبة حتى الأمس.

عموماً.. النبات الجديد له ملامح شبيهة.. وإن كنت مازلت أعجز عن رؤية أنفاسه.. وسريان المياه فى سيقانه.. وانتعاشة الفرع بالارتواء حتى الكفوف اللامعة المفرودة.. ولكنه كالسابق يتمايل مع نغمات موسيقى الكاسيت الملاصق فوق رف المكتبة العتيقة.

ولكن.. هل تهمك أخبار الزرع فعلاً! هذا آخر خطاب أكتبه لك.. لن أكرر تجارب الكتابة الفاشلة.. لم يصلك أى خطاب من قبل.. تعالى اقرئى كل البدايات التى كتبتها منذ خمس سنوات.. ازدحم بها درج مكتبى الأسفل ولا أجرؤ على تمزيقها.. مع كل سطر كتبته أو أعيد قراءته بالصدفة يجف جزء من جدار القلب، ويتشقق عطشاً.. لأنه يسحب من رصيد قديم لوديعة انقطعت مصادر تمويلها.. إنه سحب لا يعوضه إيداع من رصيد ما ارتوينا به من تلامس وتآلف نادر.. وهو سحب لا ينقذ من جفاف.. وإنما يمتص من رحيق الشرايين.

انتظرى.. هناك شيء مهم.. لا تحدثينى فى التليفون مرة أخرى.. لا فى الأزمات ولا فى الأفراح.. فأنا أكره زيارات المقابر.. وأخشاها.. وأتجنب المرور فى الشوارع الرئيسية المقامة بها دور المناسبات.. لن أرفع سماعة التليفون إذا سمعت صوت الترنك فى المواعيد المنخفضة الأسعار لديكم.

اسئلتى وأسئلتك لها إجابة واحدة مقتضية «الحمد لله».. وماذا بعد.. عم أسألك؟.. وعم تستفسرين؟ الأشخاص والأشياء فى حياتى تبدلت.. حتى رصيف المنزل تغير، استبدلتْ البلدية بلاطاته الصفراء والحمراء المتعانقة بأسفلت مجعد أسود يبدو بلا مسام.. فلم تعد خصلات الحشيش تطل من بين حدود البلاط صيفاً، ولم يعد زرع ولا حشائش برية بالمدخل تبرق وترطب.. ورقد خرطوم الحديقة الصغيرة خلف المنزل.. تحول إلى وسادة حلزونية لقطط الشارع.. واختفت «رشة العصارى» فى قيظ الصيف.. فلم تعد خراطيم بوابى المنازل المجاورة تتسابق.. ولم تعد المياه تسيل بطول أو عرض الرصيف.

وعلى فكرة.. لم تعد فى مستطيلنا السكنى سوى فيللا واحدة.. ولم نعد نرى الميدان من الشرفة.. أخفته ناطحات سحاب بطول الشارع.. لها واجهات ألومنيوم بزجاجٍ أسود خانق.. كما اختفت الأشجار المتلاحمة التى رسمت دائماً سوراً أخضر للنادى أمامنا.. استبدلوها بسور أسمنتى ليتحمل ثقل الإعلانات العريضة عن المطاعم وشركات الخدمات.. وأجهزة التكييف.

هل استطعت تصور شكل شارعنا.. وموقع منزلنا.. الآن.. مستحيل.

أنا أيضاً فشلت فى تخيل ما تحكيه لى باختصار عن شكل وموقع منزلك.. وملامحه من الداخل..

لم تحملى معك يوم الرحيل سوى الملابس.. والصور. وبعضا من لعب طفلتيك.

تضحكين بالتأكيد.. لم تعودا طفلتين.. أعرف.. ولكن نموهما توقف في عيني لحظة الرحيل.. لا ترسلي مزيداً من الصور لأنها تؤكد غربتنا وانفصالنا.. نظرات العيون في الصور الأخيرة لابنتك الكبرى لم تحمل ابتسامة مرسومة كالعادة.. وإنما تحمل حيرة وجذوراً مخلوعة.

أراك كثيراً في أحلامي.. أراك دائماً بالفستان الأزرق الأشبه بزى عمال الصين.. هل مازلت تحتفظين به؟ هل مازلت ترتدينه دون اختيار واع كلما واجهت ضغوطاً.. بأى عادات احتفظت.. وماذا اكتسبت.. أتمنى رؤيتك دون حوار أو تلامس.

آه.. قبل أن أنسى.. لا تأتي في أجازة الصيف القصيرة.. لا أحب أن نلتقي لنفترق. ما رأيك لو رتبنا لقاء في بلد محايد غريب عن كلينا!

الأقارب يسألون عنك باستمرار.. ولا أملك تفاصيل تشبع فضولهم.. ومن أين لي بالتفاصيل وحديثنا التلغرافى.. ثوانيه محسوبة بدولارات ترهق ميزانيتك شهراً.. وتخنق قلبى ليالي ممتدة.. دعينا لا نبتر جمال أوهام وذكريات التلاقي بسماعة باردة.

شيء آخر.. ونهائي.. لا تطلبي مني أن آتي لزيارتك.. لن آتي أبداً.. معدتي ترفض أى طعام غريب.. أو معلب.. أو سريع وسط موسيقى صاخبة.. مخنوق بعقرب ساعة. وقدماى تعجزان عن السير إذا ما بحثا عن مواقع خطواتهما بعيون مفتوحة تتحسس.. وتسأل لتتأكد من صحة الطريق..

لا أعـرف إليك إلا طريقـاً واحـداً.. ومنزلاً واحـداً.. طريقك كل شبـر وكل وجه فيه يعرفني وأعرفه.. يبدأ من طول شارع رمسيس.. وعبور المستشفى القبطى.. إلى مدخل محطة مصر.. ونفس وجوه الحمالين وفراشي الديزل.. ويقترب لقاؤنا بعد مدخل كفر الدوار.. وكوبرى سموحة.. وبائع الجرائد على الناصية فى الكشك الأخضر.. وبقايا الأشجار الكثيفة التى تلحم المنازل العتيقة.. وتفرز الزهرة البنفسجية الرائعة.. والتى لم أعرف اسمها يوماً.. لأصل بلهفة لسلالم مدخلك المتآكلة.. وأنت هناك بالتأكيد.. فى المطبخ غالباً.. حتى لو وصلت بلا اتفاق لينطلق حوارنا متصلاً.. ساعات ممتدة مشحونة.. لا تحمل عقاربها هم دقائق أو ثوان.

لن آتى لك بموعد أحدده بشهور مسبقة.. مشروط بأجازة أو «ويك إند» لتنتظرينى.. وأضطر معه لاختراق وسائل مواصلات غريبة.. تمرق وسط أجناس ومناطق بملامح أجنبية.. لها أسماء لا أفهم معناها أو سببها.. لن أسأل وأتأكد ألف مرة أن هذا هو عنوانك.. ولن أقف لأتردد مائة مرة قبل طلب رقم هاتفك.. لأنى لا أعرف كيف ومن أين أطلبك بالتحديد؟! ومن سيتلقى صوتى.. أحدكم ليصرخ بعفوية أهلاً.. مش معقول.. أين أنت؟.. أم ستصفعنى أصوات باردة.. أم يدوى الرنين بلا مجيب؟!

وإذا نجحت فى الوصول لعنوانك.. سأتردد عشرات المرات قبل أن أطرق الباب.. وربما أعجز.. خوفاً من إطلالة وجوه غريبة مستنكرة.. فأعتذر وأختفى لأطرق بابا آخر وأسأل.. هل هذه هى الدار؟!

لذلك إذا قررت أنت العودة.. ستجدين المفتاح الإضافى لمنزلى عند نفس الجارة.

وختاماً.. لا تغضبى.. ولكن لا ترسلى لى المزيد من الملابس.. فأنا لم أرتد البلوفر الأزرق الثمين الذى أرسلته الشتاء الماضى مع عابر طريق.. لم أحب ارتداء هذا الموديل أبداً رغم جماله.. فأنا لم أتغير . وإنما أنت نسيت؟

ملاحظة: وصلنى تلغرافكم حالاً.. انتظركم بلهفة.. أنا فى طريقى للسوبر ماركت لشراء الملوخية والفريك.. وأحدث شرائط الكاسيت.. هل حقيقى أن ابنتيك لا تفهمان النكت المصرية.. بسيطة سأشترى أغانى فقط.. ولكنى أنتظر «تليفون» ضرورى لتأكيد موعد وصولكم بالضبط.

«فراشة دانتيل»

استيقظت فرحة خفيفة.. كأن هناك عالماً آخر غامضاً يناديها.. يسحبها.. بطول ذراعيها فتحت شيش الشباك العريض عن آخره.. طرقعت ضلفتاه على الحائط.. وانسدل شالها بخفة منسحباً من احتضان كتفيها.. مع هجوم :فعات نشيطة متلاحقة من هواء نظيف ندى من الأكسجين الخالص.. تخترق مسام وجهها.. تهمس في عينيها وأذنيها.. تلثم عنقها.. توقظ جذور شعرها الطويل.. وتتخلل جدائله الكثيفة لتنطلق بحرية قديمة.. قديمة.

بجرأة يرفع الهواء الحر خصلتي شعرها المتهدلتين.. فتحلقان معاً.. راقصتين متماوجتين.. كنتفة سحاب أبيض.. كجناحي طائر هائم.. ارتجفت روحها منتعشة وبدأت تسمو وتستسلم وتغيب.

زفرت مفرغة هواء الليل المخنوق عن صدرها.. فامتصت رئتاها النسمات الثلجية المخدرة اللذيذة.. وتوردت شرايينها ونبضت.

كالمستيقظ لتوه من حلم رائع.. بدأت تفتح عينيها بهدوء.. رموشها ترفع جفنيها ببطء وبكل السعادة ليخطف بصرها شعاع ذهبي باهت.. يسحبها مباشرة لخط الأفق.. لتلحق بلحظة تفتح أزهاره الخرافية الكثيفة.. نظرت غابة من الزهور المتوحشة غلفها ندى الصباح بغلالة من التل.. تحيطها أسراب من الزهيرات البيضاء الصريحة الدقيقة.. فبدت كطرحة وباقة عروس هائمة.. تحلق حولها فراشات ساحرة، امتصت أجنحتها الحريرية ألوان الطيف من غروب

الأمس.. ترفع فوق رءوسها مظلات خرافية ناعمة من الدانتيل المطرز تتلألأ مشرقة عن بعد.. هل هذه هى بوابة الجنة ومداخلها!

ترنحت.. فتشبثت بحافة الشباك ونظرت لأسفل.. الشارع مغسول بعطر.. وهاهى عربة النظافة الهاربة من عالم مسحور بالجمال تنسحب فى نهاية الشارع.. تبذر جناحى الطريق بأصص زهور ضاحكة ومتحركة.. ترسم قلوباً على الأرصفة العشبية السطح كلها.. تمنت أن تهبط حافية القدمين.. تدس بطن قدميها فى عشب الرصيف الندى.. وتتلقى رذاذ رشاش العربة الصاخب.. وهو يشاغب ويناغش الزهور.. ويخترق قلوبها فتطلق شذاها شظايا توقظ نوافذ المدينة النائمة.. لتفتح ضلفتيها أحضاناً.. وتطلق أسر ستائرها الحريرية.. طاردة هواء الليل الجاثم.. مستقبلة نسمات الزهور الساحرة.

وقفت على أطراف أصابعها فوق بلاط الغرفة.. وانحنت لأسفل قدر ما تستطيع.. تطلب من الرياح أن تزيح الشجرة الأم الكثيفة لترى محطة الأتوبيس بوضوح.

المحطة مغسولة.. ألواح مقعدها الخشبى الطويل مرآة مصقولة.. تعكس صورة عود «بوتس» أخضر شاب نما بقوة وشجاعة وتسلق الأعمدة.. وتدلى طرفه فوق رأس شعر مخملى ذى شعر كثيف حبيب تعرفه جيداً!

فركت عينيها لا تصدق.. نعم هو «شادى».. انطلق صوتها من قلبها تجاهه.. لمس تيار ندائها قلبه.. فتلقى نداءها وجهه ووعيه.. وأجابها نعم.. نعم مع شروق الشمس جئت انتظرك.. هيا أسرعى..

تلاشت الحدود والحواجز.. اختفى الكون.. وبقى شادى فوق الرصيف الأخضر.. تظلله أفرع البوتس.. يحاورها ببريق عينيه العسليتين الصادقتين يبثها كل الحب والاشتياق.

من أين جئت؟.. وإلى أين؟.. ولماذا تحمل نوتة المحاضرات؟.. هل لازلت تذهب للجامعة؟ كيف هزمت السنوات؟ أين أخفيتها؟ كيف محوتها من شعر رأسك؟.. كيف احتفظت بنضارة وجهك وفرحته؟ أين تجاعيد قحط الفراق.. والقيود والحدود؟!

قال لها: تتخيلين.. صدقينى تتوهمين.. استيقظى من الكابوس. انظرى جمال وجهك فى عينى.

لمست وجهها بأناملها المرتجفة.. فعلاً بشرتها لا تزال وردية نابضة طازجة.. متلهفة لتلقى همساته وأنفاسه ووهج روحه.

لوَّح لها بشريط كاسيت جديد.. هذه نسخة طبق الأصل لها.. ليستمعا إليه معاً كلما افترقا ساعات كما عودها دائماً.. تلهفت على سماع الشريط فوراً.. فدوت كلمات وموسيقى الشريط.. وانطلقت هاربة من أسر دوائرها الضيقة.. متسلقة الهواء.. إلى أذنيها مباشرة، تهمس وتلمس.. تصرخ وتئن..تعتب وترتجو فتذوب هى.. والموسيقى ترتفع.. ترتفع تحملها معها وتهبط بها إلى ذراعى شادى الممدودتين.

تحيط خصره بذراعيها.. تندفع بهما دراجته البخارية السحرية.. بلا صوت ولا عادم.. يخترقان السحاب..

إلى أين؟

- كما تشائين.. لامحاضرات اليوم.. اليوم ملك لنا حتى المساء.

حلقا معاً.. تحوطهما موسيقى ناعمة لأغنيات قديمة عشقاها..
نسجت كلماتها من عشقهما وبراءتهما.. وهاهى تصدح احتفالاً بهما.. وتفتح أوراق الذكريات تنشرها حولهما حتى غابا بسلام في عمق الأفق.. وهو يهمس لها أحبك.. أشتاق إليك.. لن نفترق أبداً.

صمت الشريط.. ودوت سارينة عربة الإسعاف فى الحارة المتلاصقة المبانى والبشر.. لم ترتجف يد طبيب العربة ولا قلبه وهو يفرد ملاءة بيضاء فوق جسدها المسجى باستسلام وراحة فوق أسفلت الطريق تحت نافذة منزلها المفتوحة عن آخرها.

لم تدو صرخة فى الحارة.. ولم ينطلق تساؤل أو اتهام.. وإنما انهمرت دموع غزيرة ساخنة وحل حزن.

سكتت سارينة العربة وهى عائدة بحملها.. لم يجرؤ أى جار على الصعود لأعلى.. فقط تجمهروا أسفل المنزل فى انتظار نزول الزوج والأطفال.

وداخل المنزل.. كان زوجها يصرخ مولولاً متوعداً من داخل الحمام.. طالباً الفوطة.. وإغلاق النوافذ.. وتحضير الإفطار.. وتسخين الشاى.. وتلميع الحذاء.. ورتق الشراب.. يستعجلها توصيل الأولاد للمدرسة والعودة ليذهبا معاً إلى الديوان.

ومن الحجرة الأخرى تصرخ حماتها العجوز فى زوجها الكهل المريض.. تسأله من وسط سعالها هل صوت سارينة الإسعاف فى الحارة أم ضمن ما يذيعه الراديو.. ثم تنادى عليها بإلحاح تطلب فنجان التليو ومعرفة سبب دخول الإسعاف للحارة.. تنادى وتنادى.. وتختلط الأصوات داخل المنزل.

ولكنها مازالت هناك

هل يمكن أن تنادى روحك إنساناً بعيداً عنك بعد حدود بلدك.. والبحر المستطيل.. والقارة.. بعرض وعمق محيط.. وتصله الرسالة.. بل ويرد عليها فوراً؟

هذا النوع من الرسائل المنقذة.. يغير مسار حياتك أحياناً.. واعترف الكثيرون بأنه موجود.. وجربوه.. وأنه نوعٌ من التجارب أشبه بتأكيد العلاقة بين الروح وخالقها.. يترك فى النفس ارتياحاً خاصاً.. وأن له بدايات كثيرة ومختلفة ودائماً غير متوقعة.

فمثلاً تحاول النوم.. فيبرق فى ذهنك وجه لصديق لا تعرف له عنوانا منذ سنوات.. تتمنى لو كان موجوداً.. ثم تبعده عنك بسرعة خوفاً من السقوط فى بئر الذكريات.. وتستسلم للواقع.

ثوان.. ويدق التليفون.. صوت يناديك باسمك فقط، ويصمت.. وفجأة ترى ابتسامة ووجه الصديق الحميم الغائب.. وجوده يملأ فراغ الليل والمكان حولك.. تصمت لينادى وتسمع مرة أخرى.. «آلو».. تتأكد أنه هو.. وفى هذه اللحظة يتأكد اشتياقك له هو بالتحديد.. وكم أوحشك هذا الوجه.. وهذا الصوت.. وهذه المحبة.. و... تنسكب كل التفاصيل والذكريات المريحة.

ويذهلك كيف احتملت طول غيابه.. وكيف فشل الآخرون فى احتلال مكانه.. وأن ينابيع الفرح تنفجر كالصواريخ الملونة من قلبك ومشاعرك الآن لمجرد سماع صوته.

وترتفع الضحكات القديمة قبل أن يبدأ الحوار.. وقبل أن تعرف من أين يتكلم.. وهل سيعود؟!

وفى لحظة تغمرك أمواج الأمان لمجرد أنه مازال هناك.. ترتبك.. تتماسك.. ثم تحلق معه فى سمائكما الصافية القديمة.

هذا التليفون الساحر الشافى.. أضاء لى إحدى الليالى المظلمة.. صوت مغلف بلكنة أجنبية لكنه هو.. صوتها.. هذه هى مشاعرها تقول تماسكى أنا معك.. عرفت الآن فقط.. هل أيقظتك؟! ونقتسم الحزن معاً مثلما اقتسمنا كل المشاعر أياماً وليالى وسنوات قليلة لكن رائعة.. نتعاون معاً على دفع الذكريات الحزينة خلفنا.. نتخفف ونواصل بمرح وأمان.. لنا نشيد حياة خاص وسرى.

لا أدرى ماذا قلت لها.. لكننى أتذكر كل حرف نطقته.. وكل مشاعر غمرتنى.. كنت فى بؤرة الحزن وارتويت بوجودها.. وعدت أن تحادثنى كثيراً ولكنها لم تفعل.. أعطتنى الجرعة العاجلة وانسحبت تاركة رقم تليفونها البعيد.

هذا التليفون أيقظ الذاكرة.. أعاد الحياة للنشيد القديم.. فبدأ القلب يضخ الدماء فى شرايينى من جديد.

بعد عشرة أشهر.. عبرت بى طائرة جامبو المحيط العميق الداكن الفاصل بيننا.

ضغطت على أزرار التليفون بأرقامها الأجنبية.. ودقات قلبى تعزف نغمات كل رقم.. لأننى سأراها هذه المرة.. سنتلاقى.. ونتعانق.. وسنجلس متواجهين نحكى بلا توقف.. وسأنظر

لوجهها.. سأرى وألاحظ وأستنتج وأعرف كل شيء.. ونتبادل الأسرار كلها دون تساؤل أو شرح.

أنا وهى الآن فوق أرض قارة واحدة.. تصف لى عنوانها.. وأكتشف أننا أشبه بتائه يقف فى حقول القصب وينادى صديقه التائه فى حقول الذرة المقابلة.. كل منا فى ولاية تفصلنا طرق سريعة طويلة جداً.. مداخلها ومخارجها متماثلة لا يميزها سوى أرقام جافة وأسماء بلا ملامح.. تمرق العربة تحتها.. ولا تلتقطها سوى سيارة مدربة.

الوصول إليها كان مغامرة طالت أربع ساعات.. أتوه.. أطلبها من كابينة طوارئ أو محطة بنزين. وهى تعيد ضبط البوصلة وتنتظر.

وأستمر فى الطريق.. أتساءل: هل تغيرت؟.. هل ما زالت تعشق السلاسل الذهبية الكثيرة الرقيقة حول معصمها؟.. هل توقفت عن إطالة أظافرها وطلائها بعد ثلاثة أبناء ومجتمع شعاره اخدم نفسك؟.. هل لازالت لا ترسم عينيها إلا بطرف مكحلة الأقصر؟.. ومازال وجهها صبوحاً ومتورداً وعيناها العسليتان أهدابهما طويلة.. وخصلات شعرها المتمردة تشاغب جبهتها وأذنيها وتتوج رقبتها الفرعونية؟.

هل مازالت تخجل من طولها الفارع وجمالها المضيء وتمشى بانحناءة خفيفة للأمام؟.

الغريب فى هذا اليوم.. ليس ما حدث فى لقائنا.. إنما ما حدث فى الليلة السابقة له.. وبعد أن تواعدنا على اللقاء.. بعدما تأكد وجودنا من بعضنا عن قرب.. نمت بعمق وارتياح.. أما هى.. فكأنها

أرسلت لى كل نومها هذه الليلة لتظل يقظة تستعيد التفاصيل كلها.. تفاصيل صداقة أيام الحرية والاختيار والتحدى.. لم تنتظر الصباح نادته وتعجلته لتضغط على أزرار التليفون برقم اسمى بجواره تعرف أننى على بعد ولايتين فقط منها.. وتسألنى: هل سآتى لنفطر معاً! تعجبت ونفيت الاحتمال وأكدت أننى على الأقل لن «أتلكع».

الآن فقط.. وبعد خمسة أشهر على لقائنا فهمت غموض تلك المكالمة.. اعتدنا الاحتفال بتحضير وجبة «الفطور» عندما كانت تسمح لها ظروفها بالمبيت معى فى آخر سنواتها الجامعية فى منزل أمى أيام الحرية.. يااااه.. لقد عادت لبدايات صداقتنا ولم أنتبه.. واضح أنها أرسلت لى كل نوم هذه الليلة فعلاً.

قبل خروجى لمغامرة الوصول إليها. وأنا أتأكد من وجود العنوان والتليفون فى حقيبتى.. اكتشفت أننى أرتدى بنطلون جينز وتى شيرت بسيطة وبدون ماكياج.. ترددت.. صحيح هذه أنا الحقيقة التى تعرفها.. لكن كم سنة مرت على لقائنا الأخير؟... أصابنى وجوم من الرقم.. سبعة عشر عاماً.. معقول!

أخرجت من قاع حقيبة السفر ملابس المناسبات.. المناسبة لعمرى الجديد وحالتى الاجتماعية الحالية.. ولا أدرى لماذا قررت فى لحظة تقييد نفسى بحبال الواقع السخيف.

تهت.. وخرجت تبحث عنى.. وأنا أركز بصرى على الاتجاه العكسى.. أفتش عن سيارة ڤولكس زرقاء.. وعن جهها خلف عجلة القيادة. مستحيل أن تكون قد تغيرت كما تدعى.. ولم نتلاق.

أخيراً.. وصلت منزلها قبلها.. جلست على سلالم المنزل المفتوح على حديقة آمنة حشيشها لامع.. بجوارى على السلم صبى أطول منى قليلاً هو ابنها.. ترك صديقه وجاء للفرجة على هذه الصديقة القديمة التى أربكت حال أمه وَالأسرة كلها منذ مكالمة الأمس.. يحملق ويقارن صامتاً.. وبجوارى ابنتى فى نفس طوله.. لا يعرفان عن بعضهما إلا الأسماء والعمر والعنوان.. وها هو الشكل.

لا يربطهما حوار لكن فضولاً شديداً لمعرفة أسرار علاقتنا أنا وهى وردود فعلنا لحظة رؤيتنا لبعض وحال اللقاء بعد هذه السنوات.

أخيراً وصلت.. ها هى أمامى..

- «لم تتغيرى.. كأنى رأيتك بالأمس». تبادلنا العبارة وكل منا تشك أن الأخرى تجاملها.. زاد الوزن قليلاً.. والمسئولية كثيراً.. ونقصت الحرية الشخصية جداً..

لكن لم تفصلنا الغربة.. ولم تسدل ستائرها.. لم نبحث عن بدايات حديث.. ولم نتوقف عنه.. امتد الحوار والارتياح بنفس البساطة المعتادة.

كل الأسماء حية فى ذاكرتها.. تسأل عن أشخاص نسيتهم أنا.. وآخرين ماتوا منذ سنوات.. أو فرقتنا الأيام.. لكنها تذكر تفاصيل حقيقية لهم عاصرناها معاً وتأثرنا بها.. كيف نسيت أنا!! وكيف تذكر هى كل هذا؟!

حدثتنى عن زملاء عمل وجيران غرباء وأقارب أتوا للهجرة لا أعرفهم.. تركنا حديث الماضى والأغراب.. وضحكنا عندما لاحظت أن ما حدث لى هذا الصباح أصابها أيضاً.. وأن ما ترتديه يعوقها

ويفصلها عنى. فى نفس اللحظة تحررنا.. ارتدينا بنطلون چينز وتى شيرت بيضاء قطنية بسيطة.. نظرنا لبعضنا كأننا اشترينا ما نرتديه معاً.. نفس الطابع واللون.. عدنا متشابهتين.

خرجنا من الڤيللا الأنيقة ننطلق لأى مكان مفتوح لأخبرها بكل شيء.. وأسمع ما تريد أن تقوله لى.

تصارحنا عن أسباب افتقادنا كل منا للأخرى.. وعن محاولات تكيفنا مع الأحلام التى أجلناها والتى تنازلنا عنها.. وعن حقيقة صورتنا الآن وزمان.. فى عبارات خاطفة سرقناها من مسئولية تلبية رغبات أولادنا أولاً.

وأنا أتركها.. وأتملص من عناق طفلتيها المشبعتين بنفس روحها الودود.. وأؤكد لهما أننى عائدة للمبيت ليلة أخرى معهم قبل الرحيل.. نظرت لى.. ثم انفجرنا ضاحكتين بقوة حتى دمعت عيوننا..

لأننا لم نخبر بعضاً بأهم اعتراف.. ولكن اكتفت كل منا بالتأكد من أن الأخرى مازالت هناك.

اصحى ياأستاذ.. حنانيك!!

نام الأستاذ.. نام تانى.. سقطت رأسه.. عيناه مفتوحتان فى توهان.. عقله اختفى فى غياهب الأحلام.. حلقت به شياطين الشعر فى البيداء!

أدركت نومه من صوت الصمت الذى خيم على المنزل.. ومن همس كركرة البنات وهن يتسحبن هاربات للبلكونه لحين عودة الوعى للأستاذ!!

ياخسارتك ياأستاذ.. فين أيام مجدك الغابر؟.. انهزمت بعد النصف ساعة الأولى من الحصة.. وباقى ساعتان بعدهما شهران!!

البنات أطفأن نجفة الصالة.. وأضأن السهارة مع موسيقى لعمر خيرت.. وتفرقن.. واحدة تبعث رسائل للشلة بالموبايل تخبرهن بالوصف التفصيلى لمشهد غفوة الأستاذ.. فى القيلولة.. وأخرى تجرب «ماكياج» جديد.. وباقى التسع طالبات ضيوف الدرس الخصوصى ما بين باحثة عن برنامج كيف تربح المليون.. وبائسة عاجزة عن التواصل مع منهج اللغة العربية.

البائسة انزوت وحيدة صامتة.. تتسابق دموعها عجزاً.. النحو ألغاز تتخابث.. والبلاغة تتبخر أسرع من الكيمياء.. وسوق الملخلصات خال من أسئلة شاملة مجابة للرواية المقررة إلى الأبد و«إسلاماه».. كيف تنجو من تداخل الشخصيات والأقوال والمواقف.. والأغراض.. والمعانى التى تزيد عن سبعين كلمة غريبة

فى الفصل الواحد.. والرواية ستة عشر فصلاً مُلغماً.. والأستاذ استسلم ونام!!

كنت أغلى المياه استعداداً لكوب الشاى الأول بعد فنجان القهوة للأستاذ.. أسقطت الإبريق بقوة على عين البوتاجاز الملتهبة.. وأطلقت رنين أجراس ملعقة الشاى على زجاج الكوب.. وفتحت النافذة أنادى البواب سمسمار التعليم.. الذى طالته فوائد الدروس الخصوصية فى عمارتنا.. فأصبح يحجز مكاناً لسيارة من يدفع أكثر.. ويسأل كل داخل بذكاء المخبرين الفج «أستاذ واللا تلميذ؟!».. وقرب الامتحانات يستبدل البقشيش بالملخصات يطبعها ويوزعها!!

كف البواب على جرس الباب أيقظت الأستاذ .. هب مشوشاً متوتراً.. إذن لم يكن معربداً مع موشحات ليلة أندلسية من صفحات الكتاب.. احتمال أنه عائد من مبارزة شعرية عباسية.. لدغه فيها المتنبى بيت عتاب غرضه اللوم على النوم وسط درس بأجر.. لأنه قفز مؤيداً المتنبى فى شكواه من الزمان قائلاً:

كلما أنبت الزمان قناةً

ركّب المرء فى القناة سناناً

-«هييه.. هييه.. ياللا يابنات»..

استأنف الأستاذ الصياح والتهليل والتشجيع وإنعاش الهمم.. عاد يدور حول المنضدة مُدندناً بقواعد اللغة التى لحنها على إيقاع يضبطه بالتصفق ليحفظه الطلبة «صم»!

أعدت إضاءة النجفة.. وتحلّقت البنات حول منضدة السفرة كارهات.. كل واحدة تزع كرسياً ثم تسقط عليه متأففه.. وأقدام الكراسى المسكينة تترنح تحتهن كالمكرونة الاسباجتى المسلوقة.. وطبول قلبى تدوى من ذكرى عذاب وتكاليف ومجهود إصلاحها على ستة أشهر.

ابتلع الأستاذ حبة أسبرين مستوردة جاء بها معه من حج سياحى لا يتخلف عنه عاماً.. ثم صرح يضيف لشكوى المتنبى من الزمان رثاءً للتعليم.. ولوماً للغة العربية التى أحبها فأذلته.. وتقمص لسان «البرمكى» وهو يقرأ ما كتبه للرشيد الذى سجنه:

«من شخص أسلمته ذنوبه.. وأوثقته عيوبه.. وخذله شقيقه.. ورفضه صديقه.. مال به الزمان.. حل به الضيق بعد السعة».

... ثم يضيف من عنده.. «ونضطر لتدريس ما لا يجب لمن لا يرغب ولا يثمر.. هييه ياللا يابنات كنا فين» !!

تصيح البائسة اليائسة من النحو والإعراب تذكره.. ياأستاذ هذه حصة مراجعة النحو والقصة.. تنهمر دموعها وينقلب الحال.. الخوف يحاصر المكان وينشر أمراضه وعدواه.. لا تركيز ولا منطق ولا استجابة..

يتبادلن قراءة الإجابات للتصحيح.. الإجابات متعارضة.. والأستاذ سارح لا يجادل.. رفعن المجرور بالياء.. وجزمن المنصوب بالألفْ.. واختلط تمييز أسماء الزمان مع المكان مع أسماء الصبيان والبنات.. وتشابك المصدر الصناعى مع المصدر الميمى.. وتاهت منهن عبقرية اكتشاف الياء الأصلية من المزيفة.. وفشلت أذهانهن

فى اصطياد الواو الزائدة عن الحاجة.. وتوقفن عن مطاردة ألف التأنيث المقصورة والممدودة والمتوسلة لله طلباً للرحمة من هول كم المتناقضات والتفاعلات والتصغير والتفضيل بعد الأمر والنهى والنفي.. تخبطت الإجابات ما بين جزم الماضى وكسر المضارع وجر المبتدأ وحذف الخبر لأنه رذل وسخيف!!.

آه لو سمع شعراء وأدباء التاريخ.. سكان العصر الأموى والعباسى والمملوكى والتركى والأندلسى ما يقال فى صالة منزلنا.. لكانوا سحبوا إبداعاتهم من كتاب الوزارة.. واستنسخوا جريراً للانتقام من جهابذة حشر المناهج.

أيقنت أن الأستاذ مصاب بحالة انسحاب من الواقع بالنوم أو التوهان.. غاب منه الفقيه عاشق اللغة العربية الذى أرسى قواعدها فى أجيال تدين له ويعتز بها.. كان الأستاذ يعلم بابتهاج.. يصول ويجول على مسرح الدرس الخصوصى ويتجلى.. مصمماً على توصيل الرسالة.. كانت جدران هذه الصالة تطرب.. وهو يشجينا بأبيات من عتاب المتنبى لسيف الدولة بعدما وشى به عنده الحاقدون ولم ينصفه قائلاً:

يا أعدل الناس إلا فى معاملتى

فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

وبما كتب الخليفة العباسى تعليقاً على شكوى لمواطن يتظلم من موظف: «كثر شاكوك.. وقل شاكروك.. فإما اعتدلت وأما اعتزلت».

هكذا كان ينتقى الحكمة ويحولها إلى مبادئ يثبتها فى عقول الطلبة.. ما زال صدى صوته وهو يلحن الشعر.. ويتلو النثر.. ويمجد الأدب وتفسيراته.. قراءته مفعمة بالحرارة والصدق والعشق لجزالة اللفظ.. وثراء اللغة وعمق معانيها وتأثيرها على النفس والشخصية والوطن.

كان ذلك منذ سنوات قريبة.. أيامها كان الأستاذ يختار الطالبة التى يوافق على تدريسها اللغة.. يختار من لها عقلاً ووجداناً متعطشاً لفتح كنوز اللغة.. وأذناً تجزع من انكسار موسيقاها.. وحساً يلتقط الخطأ الإعرابى وروعة المحسنات البديعية.

واليوم.. الأستاذ له سكرتير يبدأ فى تسجيل أسماء الطلبة الراغبين فى درس خصوصى بالتليفون.. قبل بداية العام الدراسى بشهرين.. ثم يجدولهن وفقاً للموقع الجغرافى.. ولا يترك للأستاذ ما بين الثامنة صباحاً، والواحدة صباح اليوم التالى.. سوى فواصل زمنية محسوبة يلتهم فيها السندوتشات فى سيارته.. وينهيها بكوب عصير من تُرمس الصباح.. ويظل ينتقل من مجموعة لأخرى.. يكرر نفس الكلام.. كلام الشرح.. وكلام التأنيب على الإهمال.. والتهديد والتشجيع.. مع قيلولة فى الاستراحة التى يقرأ فيها التلاميذ فصلاً من القصة المقررة.

ماذا فعل الزمان بك وبنا ياأستاذ؟!

زهد الأستاذ.. سئم من عبثية ما يبذله من جهد ليستخلص التلاميذ ولو قبساً من ضوء اللغة.. وسط هذا الكم المتزاحم من

ملامح عصور انقرضت مع ألفاظها وأغراضها وأساليبها فطمس الطالح الصالح..

أغلق الأستاذ الكتاب.. وقال مواسياً: «هذا قدرى وقدركم.. أنتم تبتلعون هذا السخف عاماً وتنسونه فتحملوا.. أما أنا فحالى أسوأ.. لأننى أعيد ترديد ما أراه عبثاً خمس مرات يومياً منذ خمس وعشرين عاماً.. ويجلدنى ضميرى.. فلا أنا قادر على الهروب من مهنتى وعشقى وهوايتى ورزقى.. ولا على إنقاذها أو تهوية تربتها.. لأننى لست بواضع مناهج.. ولو سألونى لاخترت أقل النماذج وتوسعت فى دراستها».

«فاصبرن صبراً جميلاً.. فلا حول ولاقوة إلا بالله.. وجاهدن لنزع اليأس.. وثقوا أنه ليس أسهل من حصد الدرجات وأصعب من حصد المعرفة».

حاولت قراءة صدى كلام الأستاذ فى عيون الطالبات.. تمنيت أن يتحقق الهدف الأساسى من هذا الدرس الخصوصى.. حلمت مثل الأستاذ المعلم أن يفرحن باكتشاف وتذوق جماليات لغتنا وثراء مفرداتها.. وأن يرين الملامح المتفردة للشخصية المصرية فى تعاملها مع كل تقلبات الحياة.. وانتمائها للوطن.

ختم الأستاذ خطابه باعتراف يائس قائلاً: «أنا أحسد الزبال وكناس الشارع.. لأنه يعود لمنزله راضياً قانعاً بما قدمه من عمل مفيد للآخرين.. على الأقل نظف الشارع»!!

ولدهشتنا جميعاً.. قالت الباكية البائسة.. مالك ياأستاذ تنافس ابن الرومى فى تشاؤمه وهو يقول:

إن أنس لا أنسى خبازاً مررت به
يدحو الرقاقة مثل اللمح بالبصر

عاجلها الأستاذ بابتسامة: بل أصبحت زاهداً كأبى العتاهية فى قوله:

يانفسى قد أزف الرحيل
وأظلت الخطب الجليل

حدثت المعجزة.. أغاثتنا الطالبة.. وفتحت باب الأمل فى نفسى.. إن التركيز موجود لكن يحتاج لمثل هذه المواقف لينجلى.. العدوى طالت الطالبات.. قالت أخرى: «ابتهج ياأستاذ.. من بعدك يعيننا على تحمل مرثيات ابن زيدون الشريد الوحيد بلا أهل ولا وطن.. ومن ابن رشيق الباكى على أطلال القيروان التى اندثرت مثله.. استرجع ياأستاذ فرحة البحترى بالربيع الذى أتاه مختالاً ضاحكاً».

أجابها الأستاذ وقد بدأ يتألق ويستعيد أمجاده.. يتهمون البحترى بأن شعره خفيفاً كغناء شعبان عبدالرحيم اليوم.. ما رأيكن؟! سمعت من تجيب: أراه أفضل من أبى تمام.. عذبنا بصعوبة ألفاظه بهدف الارتقاء بمستوى المتلقى.. وواضح أنه عذب أهل عصره وزمانه أيضاً بدليل ما قاله له أبو العميثل معاتباً:

«لماذا لا تقول ما يفهم.. فأجابه ولماذا لا تفهم ما يقال؟!».

دار جدل نقدى ما كان يحلم به المعلم.. فتجلى كسابق عهده.. وعاد يدور حول المنضدة يصفق ويتغنى بالمقامة الحلوانية لبديع الزمان.. وهى عشقه فى المقامات، ويحكى فيها الحلوانى عن تجربة

عيسى بن هشام (بطله الخيالى) عندما عاد من الحج إلى حلوان (مدينة قرب بغداد) وأراد الاستمتاع بحمام نظيف.. فطلب من خادمه البحث عن حمام يغتسل فيه وحجام يهذب له شعره.. وحدد صفات الحمام.. واسع الرقعة نظيف الرقعة.. طيب الهواء.. معتدل الماء.. وليكن الحجام خفيف اليد.. حديد الموسى.. نظيف الثياب.. قليل الفضول».

وبعد الحمام.. قال يشكو المدلكاتى:

«جعل يدلكنى ويكاد يكمد العظام.. ويغمزنى غمزاً يهد الأوصال»..

ثم تعارك عليه عمال الحمام.. وتلاكما.. واحتكما لصاحب الحمام.. الذى ختمها بسب الزبون بأنه تيس لأنه هرب من قول الحق خوفاً من بطش المدلكاتى!!

والحمد لله.. استيقظ الأستاذ تانى.

وصيتى.. الصمت

قررت وصممت أننى لا أريد نعياً ولا عزاءً ليلياً حال موتى.. أريد أن أمضى بسلام.. بعيداً عن «قراشانات» مجالس نميمة الجنازات.. رجالة وستات..

أوصيت عائلتى أن تؤكد على أسرتى.. قالوا حاضر.. وعيونهم تكذبهم.. تصوروا أنها حالة هذيان من تأثير مأتم الأمس.. قلبى أكد لى أنهم سيتبعون طقوس القطيع تحاشياً لألسنة المعزين المتعبين.

فكرت أن أجعلهم يقسمون على كل الكتب السماوية.. وفكرت أن أكتب وصية يوقعون عليها وأسجلها فى الشهر العقارى.. لكن كل فكرة كانت تجذب معاول هدمها حتى هدانى شيطان خيالى بالفكرة العبقرية..

إن أنشر إعلاناً فى صفحة الوفيات أكتب فيه الآتى:

«أرجوكم وأقبل أياديكم.. ارحمونى من ألسنتكم.. وارحموا أسرتى المسكينة من تعزياتكم الخبيثة والجميلة».

عجبنى الكلام.. لكن رئيس الشياطين أطل برأسه من صهد جهنم على إعلانى.. وأطلق صواريخ ضحكاته السعيدة.. سمعته يقول:

«هكذا يتضاعف زبائنى.. بوفاتها.. هذا الإعلان سيفتح أبواب جحيم نفوسهم ويطلق ذخائرها.. لأنه لا يهرب من مأتم وتعازى إلا من كان سيىء السمعة «ألعوبان» السلوك.

فعلاً!! وسوف يبذل كل غريب وقريب أقصى جهده لتذكر أى همسة أو إشاعة أو موقف أو كلمة.. سمعها منى أو عنى.. لينسج هرماً من الذكريات على قمته عبارة «ولهذه الأسباب كانت مرعوبة من اجتماع الناس فى جنازتها».

والعمل!

ملاك عجوز «خبيث» لذيذ.. همس لى بحذر:

- «اعطيهم مقلباً».. واكتبى.. وفعلاً أملانى:

- «لا تكلفوا أنفسكم مشقة المشاركة فى تأبينى.. سامحونى لأننى بعد أن عرفتكم وخبرتكم بادلتكم نفس المحبة الكاذبة... هذا لأننى كنت جبانة وأخاف الوحدة فى الشيخوخة.. لهذا كنت مضطرة للتغاضى عن سمومكم.. وعن الوشايات والأحقاد التى آلمتنى ولن أغفرها لكم أبداً إذا ظهرتم فى ليلة مأتمى..وأحذركم سأجاهد لأفضحكم».

وقبل انصرافه متسللاً.. رأيت على ظهر جناحه عبارة «شيطان تائب».

بلعت جرعة مضاعفة من المهدئ.. ومضاد الاكتئاب.. أطفأت أنوار عقلى وسريرى .. ونمت بعمق.. مقتنعة! هذا أحكم قرار أتخذته.. وإنه دليل نضجى وتفتح بصيرتى بفعل الحزن النبيل ومشيئة الله.

بمجرد غياب عقلى الواعى.. انتابتنى حالة غريبة.. كأننى أسبح على سحابة شقية.. أنتقل بها من الماضى للحاضر للمستقبل..

أدخل فى مشاهد أعرفها وأجهلها من جنازات ومآتم.. مرة متفرجة.. ومرة مشاركة.. ومرة صاحبة الجثة..

مرت عليّ جنازة أمي.. كان سيناريو وفاتها من نوع «الأكشن».. أى الإثارة والرعب من كلمة «جلطة».. المغامرات.. مع أغبى الأطباء ولصوصية المستشفيات.. ثم المفاجأة السريعة.. فى هذه التجربة تعرفت على ملامح جنازات وفيات «الأكشن».. و«نصوص» التعزية فى الأمهات المخطوفات.. وأساليب جلد واستجواب وتعذيب الأبناء.

يهجمون فى لحظة كالجراد.. بعد صرخة المفاجأة. وتوهان الخوف من اليوم نفسه.. ومن زيارة ملاك الموت الرابض.. يطهرون نفوسهم وذنوبهم بدموع حقيقية.. تجف بمجرد إغلاقِ الصندوق على المرحوم.. واختفائه من أمامهم.. وينقلب الحال.. تنفتح الشهية المتعطشة.. ويتحولون إلى نابشى قبور.. تتجلى مواهبهم فى ليلة الوفاة.. فى حفل المأتم..

تميل السحابة على ليلة مأتم أمى.. وكأننى آراها لأول مرة.. والحقيقة أنها- بعد ١٤ عاماً من الزمن- كوميدى..

أرى المعزين والمعزيات.. الحزنانين والقراشانات.. يتوافدون كأنهم فى سباق.. يحاصرونى وإخوتى.. يتجاورون يلتحمون ثم ينتشرون بالأخبار بحيوية عجيبة.. تلتصق بى من كانت أقرب صديقات المرحومة.. بعد دمعتين.. ونهنهة.. ترشق فى قلبى المهترئ عبارات تشعل ما خمد من الجراح.. تنهمر دموعى وأسئلتها الوقحة

تخترق أذنى.. هل كتب أبوك العمارة باسمها؟.. اشترى الأرض من ميراثها.. كان يخصص لها مبلغاً باسمها فى البنك.. هل سحبتوه بالأمس؟.. ماذا فعلتم بالمجوهرات؟..والأسورة.. إسورة شبكتها الألماظ.. أسئلتها مطارق ولكمات.. أرى نفسى ليلتها وأسمعها تلعنها فى صمت.. وأتابعها وهى تجمع الإجابة كالأفعى المدربة.. وتبذر الحذر والشك بين إخوتى.. ثم تدور توزع ما حصدت على المعزين.. وتكتشف أن هناك أسراراً كتمتها عنها المرحومة.. فتنقلب عليها وتبدأ التنديد بخباثتها وبخلها وخوفها من الحسد..وتكبرها بإخفاء أسرارها العائلية!!

أضحك وأنا نائمة.. يهتز السرير من ضحكى. أراهن ينصرفن جماعات هامسات.. يتفقن على الهجوم على بيتنا.. فى الثالث والسابع والخمستاشر والأربعين.

لأول مرة أركز وأرى.. كن فى كامل الزينة.. بدل وتايورات حرير أسود.. يااااه.. جئن فى عرض أزياء راق ومتنوع.. يستعرضن الثراء والشباب والأناقة الكاملة بالإكسسوار وكل المصاغ والماكياج.. وطاقة فضول هائلة!

لم يخلفن الوعد.. هجموا على بيتنا.. كل منهن تحمل هماً وحزناً.. وخوفاً..خيانة أزواج.. وفشل أبناء.. ورعب من تجاعيد البشرة.. جبال هم لا مكان للتخلص منها سوى جنازة حارة من جنازات الأكشن.

من غروب شمس إلى شروقها يتحول بيتنا الهادئ إلى مكلمة ومحزنة.. يستباح فى جلسات سمر و نميمة وتكفير ذنوب.. تماماً مثلما تحولت السجون إلى مدارس لتعليم فنون النشل والسرقة والمخدرات.. ياإلهى الرحيم..

أرى نفسى لحظة أن دخلت اختبئ منهن ألتقط نفساً صامتاً .. وأتذكر غضبى ومقاطعتى لهذه المسكينة«التى قفشناها» خارجة من حجرة أمي بعدما أغلقناها وعجزنا عن دخولها !! فى يدها كيس كبير مغلق ومتخم.. أسألها ببلاهة: ما هذا؟ تجيب بثقة وحزن «مخدة المرحومة»«تذكار من الغالية» !! أصدقها بغباء المهدئ، وأمضى وسط غمامة دموع ملتهبة أضاعف تعذيب نفسى.. وطبعاً وجدنا الوسائد مكانها بعد ذلك !!

قررت وأنا على السحابة أضحك..أننى عندما استيقظ سوف أنهى مقاطعة هذه الشرهة لأنها أضحكتنى بعد سنوات! ولأنها كانت أقل اللصوص دناءة.. فقد سرقت قطع ملابس كانت تتمنى امتلاكها!

ورأيت - لأول مرة - ماذا فعلت من ظلت تلطم بمجرد وصولها من قطار الصعيد البعيد.. وأسمعتنا معزوفة حزينة هى نموذج لنواح الفراعنة.. هى نوعٌ من «التعديد» المسجوع عن مآثر المرحومة.. تحية وإكراماً لها.. كلام يدمى قلب الجرانيت.. ولم تصمت إلا بعد ساعة من ابتلاعنا لشريط مهدئ ثم سقطت في غفوة كالفيل على سرير المرحومة!!

غابت ونسيناها . .ولم ترحل إلا بعد يومين . . بعدما أدت واجبها وجاملت مشاعرنا بترتيب وإخفاء أشياء المرحومة المخطوفة . . رحمة بنا وإشفاقاً . . الأشياء الثمينة منها أخفتها للأبد فى حقيبتها ! أما الكوميديا السوداء فى تعزياتها . . فهى استيلاؤها على كل حلوى العيد من الكعك . . إلى الكيك . . حيث رحلت أمى بعد العيد بأيام . .وعادت هى إلى الصعيد بغنيمة !

أرى وجه أمى يطل من سحابة مجاورة . . تبتسم بما معناه : وما خفى كان أعظم . . وترافقنى فى بعض مشاهد الجولة التى تطارد كل بنى آدم غصباً وإكراهاً .

كنت أضحك وأقهقه فلم يحاول زوجى ولا أسرتى إيقاظى . . واعترف زوجى أنه شك أن أحد المعزين بالأمس أهدانى حبة هلوسة سوف يزول تأثيرها وأنساه .

لكن بعد مرورى على مشاهد من مآتم خالى العجوز الأرمل الثرى . . وشقيقه الأكبر أشهر عُزاب العائلة وأغناهم . . ثم جنازة أبى الذى قتله الاكتئاب بعد فراق شقيقتى الأرملة الشابة . . بدأت أصرخ وأرفس . . وامتدت يدى بقوة للأباجورة أنوى شج رأس من يسرق أطفالها اليتامى . . هنا أيقظنى زوجى . . حاصرتنى أسرتى . . ووجدتنى جالسة يداى معقودتان خلف ظهرى يؤلمنى قمعهما بعنف . . ونور الغرفة والمنزل كله مضاء !

ظللت أسبوعاً فى حالة توهان . . عقلى يراقب الأهل والأصحاب والأقارب . . ياترى من سيفعل ماذا ؟ !

وبعدين !!

سأصاب بالجنون!!

شيطان وليد طيب.. همس لي بفكرة رائعة فعلاً.. وهي أن أنشر إعلاناً في برواز واضح في قلب صفحة الوفيات الأشهر.. أرتدى مسوح الرهبان المتوحدين في جبال سيناء.. وأكتب:

- «أنا الفقيرة لله.. الزاهدة إلا من رؤية وجهه قد توفيت.. ورحلت غير نادمة إلا على آلام فراق كل من عرفتهم.. طيبين وأشراراً.. أوصى بعدم نشر نعي عن وفاتي.. ولا تأدية زفة النواح.. ولا إقامة حفل الوداع المسائي التقليدي.. لأني «اتهريت» بما يكفي في حياتي من «ألسنة أصدقائي قبل أعدائي».. في جنازات كل أحبابي. ولا أريد من أحد استباحة جنازتي والتمثيل بتفاصيل حياتي.. أمنيتي أن تتركوني أمضي في سلام.. وحتى الجنيه ثمن التلغراف النموذجي.. اخصموه من ضرائبكم وتبرعوا به للأيتام والأرامل صدقة ونور على روحي.. حتى أنساكم ولا أطاردكم في اليقظة والمنام».

●●

استرحت.. نقحت الكلام.. وكتبته على الكمبيوتر.. خزنته وأرسلته بالبريد الاكتروني لأشد المعارف فتكاً.. استرحت راحة عميقة.. ولايؤرقني الآن سوى اختيار توقيت النشر.. لأني مازلت أخاف من الوحدة إذا بلغت الشيخوخة!!

الفهرس

اسم الموضوع | صفحة

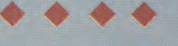
١ ـ بحبك من كشك السجاير........ ٩
٢ ـ انتخابات بالسيجار والكافيار........ ١٣
٣ ـ خسائر العتاب فيك........ ١٩
٤ ـ الهائم.. والقلوب.. وعيد الحب........ ٢٣
٥ ـ كله يهون........ ٣٢
٦ ـ وقررت أن تفرح جدا........ ٣٥
٧ ـ حالة اشتياق........ ٤١
٨ ـ قمر ١٤........ ٤٥
٩ ـ وظل لها سحرها الخاص........ ٤٩
١٠ ـ تفاصيل سبق صحفي........ ٥٧
١١ ـ وانما أنت نسيت........ ٦١
١٢ ـ فراشة دانتيل........ ٦٧
١٣ ـ ولكنها مازالت هناك........ ٧١
١٤ ـ اصحى يا أستاذ.. حنانيك........ ٧٧
١٥ ـ وصيتي.. الصمت........ ٨٥

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠٠١/١٠٢٢٩

I.S.B.N 977 - 01 - 7254 - 5



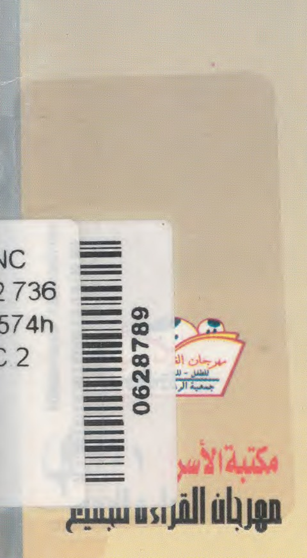


بين الحلم والواقع كانت مسافة زمنية ربما بدت لى طويلة أو مختلفة ولكن الأهم أن الحلم أصبح واقعًا ملموسًا حيًا يتأثر ويؤثر، وهكذا كانت مكتبة الأسرة تجربة مصرية صميمة بالجهد والمتابعة والتطوير، خرجت عن حدود المحلية وأصبحت باعتراف منظمة اليونسكو تجربة مصرية متفردة تستحق أن تنتشر فى كل دول العالم النامي وأسعدنى انتشار التجربة ومحاولة تعميمها فى دول أخرى. كما أسعدنى كل السعادة احتضان الأسرة المصرية واحتفائها وانتظارها وتلهفها على إصدارات مكتبة الأسرة طوال الأعوام السابقة.

ولقد أصبح هذا المشروع كيانًا ثقافيًا له مضمونه وشكله وهدفه النبيل. ورغم اهتماماتى الوطنية المتنوعة في مجالات كثيرة أخرى إلا أننى أعتبر مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة هى الإبن البكر، ونجاح هذا المشروع كان سببًا قويًا لمزيد من المشروعات الأخرى.

ومازالت قافلة التنوير تواصل إشعاعها بالمعرفة الإنسانية، تعيد الروح للكتاب مصدرًا أساسيًا وخالدًا للثقافة. وتوالى «مكتبة الأسرة» إصداراتها للعام الثامن علي التوالى، تضيف دائمًا من جواهر الإبداع الفكرى والعلمى والأدبى وتترسخ على مدى الأيام والسنوات زادًا ثقافيًا لأهلى وعشيرتى ومواطنى أهل مصر المحروسة مصر الحضارة والثقافة والتاريخ.

سوزان مبارك



NC
2 736
574h
C 2
06288789

١٥٠ قرش
مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب